معالم وأعلام

على طريق العبقرية والإبداع

فى الشعر الجاهلى

الأستاذ الدكتور

عبدالله حسين على سليمان

أستاذ الأدب والنقد

بجامعة الأزهر

الفصل الأول
"طبيعة الشعر الجاهلى"
والمؤثرات الخاصة فى اتجاهاته الفنية

الشعر الجاهلى شعر وجدانى تبعثه الانفعالات النفسية وتزجيه الأحاسيس الذاتية فهو إذن شعر غنائى يسجل خلجات النفوس ونوازعها ويصور أحاسيس الشعراء بالنعيم والشقاء والراحة والعناء والخير والشر وما يرونه بأعينهم ويحسونه بوجدانهم من صور الحياة وأحداث الوجود وما يكابدونه من أهوال الصحراء وعصف الرياح ولمع البروق وقصف الرعود وعواء الذئاب وخداع السراب وما يهتزون له طربا من وقع الأمطار وخصوبة المراعى وازدهار الثمار وانتشار الظلال وبرد النسيم وبهجة النعيم ومتعة السمر والائتناس بالرفيق.. والغنائية تعنى الذاتية بمعنى أن الشعر الجاهلى شعر ذاتى يصور نفسية الفرد وما يختلج فى أعماقه من مشاعر وأحاسيس حين يتحمس ويفخر أو حين يأسى ويرثى أو حين يعتذر ويعاتب أو حين يتأثر وينفعل فيصف ما يراه وما يحسه..

والشعر الجاهلى بذلك يماثل الشعر اليونانى القديم فى نوعه الغنائى الذى كانوا ينشدونه فى فخر أو مدح أو هجاء أو غزل أو رثاء مصحوبا بالعزف على آلة موسيقية تسمى "لير LYRE" ونسبوا إليها هذا اللون من الشعر فقالوا Lyric أى غنائى ....

بل إن الروايات التى تروى تؤكد أن الشعراء الجاهليين كانوا يغنون فيه ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلى ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه فالرواة يذكرون أن المهلهل غنى فى قصيدته :

طفلة ما ابنة المحلل بيضا ∴ ء لعوب لذيذة فى العناق[1]

ولعله من أجل ذلك أطلق عليه "صنَّاجة العرب"[2].

---

(١) الأغانى جـ ٥ ص ٥١ دار الكتب والطفلة : الرخصة الناعمة.

(٢) الأغانى ص ١٠٩ والشعر والشعراء جـ ١ ص ٢١٤.

فالسمة الغنائية كانت أساساً عندهم فى الشعر حتى أنهم عبروا عن إلقائه بالإنشاد وكان من أقدم صوره عندهم الحداء الذى كانوا يرددونه بصوت رخيم وراء إبلهم فى أسفارهم حثالها على السير السريع.

وكما نعلم فقد بدأ الشعر بالبيت والبيتين ينظمهما الشاعر تعبيراً عن مشاعره من حب وبغض وغضب وحماسة وغير ذلك وكانوا يستعملون فى ذلك بحر "الرجز" لسهولته وخفته ويسمون القطعة منها "أرجوزة" والجمع "أراجيز" ومن الواضح أن هذه الأراجيز إلى ما تمثله بوزنها الخاص من ركضات الخيل وضربات السيوف وطعنات الرماح واختلاجات الأبدان وحفزات الهمم لابد وأن يكون لها السبق دائماً فى الشعر فى هذه المقامات بالإضافة إلى ما تتسم به من قصرها وقربها من البديهة والارتجال ولأنها تمثل دفعات شعورية قوية وبسيطة فى آن. ومعلوم أن حاجة الإنسان العربى إلى الغناء بالكلام كانت هى الباعث الأول على نشأة الكلام الموزون وهو الشعر الذى تغنى به العربى الجاهلى فى حله وترحاله وفى حبه ولهوه وفى حدائه للإبل وانطلاقه بفرسه وراء فريسته وفى كل وقفة له عند مشهد من مشاهد الطبيعة والحياة والجمال... وقد كان التغنى بالرجز والشعر شائعاً عند عرب الجاهلية فى احتفالهم بالعرس وولادة المولود وظهور شاعر وفى شتى المناسبات بل وفى ميادين الحرب والقتال وفى أعيادهم الدينية وعند تقديم القرابين لآلهتهم ونحو ذلك..

لقد عرف عرب الجاهلية ضروباً مختلفة من الغناء الذى كان ارتباطه بالشعر ارتباطا وثيقا كما عرفوا القيان والغناء والإنشاد مع العزف بالآلات المختلفة من مثل الدف والعود والمزمار والبربط والطنبور... ويؤكد ذلك إسحاق فيقول "غناء العرب قديما على ثلاثة أوجه : النصب والسناد والهزج، فأما النصب فغناء الركبان والفتيان، والذى يستعمل فى المراثى وكله يخرج من أصل الطويل فى العروض وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات وأما الهزج فالخفيف الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم هكذا كان غناء العرب قديما حتى جاء الله بالإسلام وفتحت العراق وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم وتغنوا الغناء الدجزأ المؤلف

بالفارسية والرومية وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير.."[1].

هكذا نظم شعراء الجاهلية أشعارهم فى جو غنائى يسرى فيه سحر النغم واللحن والإيقاع.. وقد يوقع هذا الغناء على بعض الآلات الموسيقية وقد يقوم بغناء الشعر قيان وجوقات تعزف وترقص فى أثنائه... ومن مظاهر العنصر الموسيقى فى هذا الشعر الوزن الواحد وما يمثله من حركات وسكنات منتظمة وملتزمة والقافية الموحدة بما تمثله من إيقاع ثابت يقف عنده الكلام ويستقر الوجدان..

إننا لا نكاد نشك فى أن صور الأوزان المتنوعة التى يمتاز بها الشعر الجاهلى إنما حدثت بتأثير هذا الغناء وقد نفذوا منه إلى ضروب وقد نفذوا منه إلى ضروب من التجزئة فى بعض الأوزان كمجزوء الكامل والمديد..بل نفذوا إلى أوزان خفيفة كثيرة كالمتقارب والرمل والهزج... وقد كثرت التجزئة وضروب التعديل فى الرجز لأنه كان وزنا شعبيا كثير الدوران فى حدائهم وفى كل ما يتصل بهم من حركة وعمل كحفر الآبار والمتح منها ومبارزة الأقران واستصراخ العشائر وما إلى ذلك...

وإذا كانت النزعة الذاتية الغنائية هى الغالبة على الشعر الجاهلى فإن الشعر اليونانى القديم قد غلبت عليه النزعة الموضوعية فيما عرف عندهم بالشعر القصصى الملحمى والشعر المسرحى التمثيلى. فالشاعر فى شعره الملحمى لا يعبر عن ذاته أو مشاعره وأحاسيسه وإنما يعبر عن أحداث وأشخاص وبطولات فى قصة أسطورية تمتزج فيها الحقيقة بالخيال وتحكى عن وقائع مذهلة تصطرع فيها الآلهة وأنصاف الآلهة وتبلغ عدتها آلاف الأبيات... وذلك مثل "الإلياذة" و"الأوديسة" لهوميروس الشاعر اليونانى القديم. كما أن الشاعر فى شعره المسرحى لا يعبر عن ذاته وإنما يترك شخوصه تتحرك وتعبر عن ذواتها بأساليبها ويجرى الحوار بينها ويحرك الأحداث فى إطارها ويجيد صياغتها وحبكتها بفنه وإبداعه وإحساسه الملهم، نلمح ذلك بوضوح فى مسرحية

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٩٦.

"أنتيجونا" للشاعر المسرحى اليونانى القديم "سوفوكليس" الذى كانت ولادته حوالى عام ٤٩٥ ق.م... فالأشعار الغنائية إذن تمتاز بأن الصفة الذاتية Subjective تغلب عليها على حين أن الصفة الموضوعية Objective تغلب على الشعر القصصى والمسرحى.

وليس فيما وصل إلينا من الشعر العربى القديم شعر مسرحى تمثيلى أو شعر ملحمى قصصى بالمعنى المعروف... ولكن ليس معنى هذا أن الشعر العربى لم يشتمل يوما على هذا الطراز المعروف بالشعر الملحمى القصصى لأن الملاحم عادة تنظم فى العهود الأولى للشعوب فى أوائل الزمن الجاهلى مثلا أو قبله. وهذا هو الأصل فى تأليف الملاحم على ما عهدناه من منظومات "هوميروس" فى "الإلياذة" و"الأوديسة" والمؤلفون المتأخرون الذين نظموا الملاحم إنما نسجوا على منوالها واقتفوا أثرها واضطروا اضطرارا لأن يختاروا لقصصهم موضوعا قديما حماسيا يناسب هذا اللون من الشعر الملحمى...

والأشعار العربية التى ترجع إلى العصر الجاهلى قد ضاع أكثرها وليس بمستبعد أن يكون فى جملة المفقود منها شعر قصصى جليل الخطر نرى شاهداً عليه ودليلا يؤكد وجوده فى هذا القصص الذى يروى عن أيام العرب وحروبها فى الجاهلية من مثل يوم ذى قار وحرب البسوس وحرب داحس والغبراء وغيرها... فالأرجح أن هذه الأشعار قد نظمت ثم فقدت ولم يعوضنا عن فقدها الشعراء المتأخرون بالنظم فى هذه الموضوعات القديمة لأنهم اتجهوا بأشعارهم اتجاهات أخرى[1].

ومع هذا الاحتمال فإن هناك حقيقة ماثلة تؤكد أن الشعر الجاهلى لم يكن مقصورا على تغنى الشاعر بآماله وآلامه وتصوير مشاعره وأحاسيسه بل كان منه أيضا الشعر القصصى بالمفهوم العام للقصة الذى يسير فيه الشاعر على النهج الموضوعى الخارجى ليقدم أحداثا متوالية منطقية فى تحركاتها وانتقالاتها فى عرض مثير بارع للحكايا التى تنبع من بيئته وتفرضها على خياله وفكره قيم

(١) التوجيه الأدبى ص ١٥٧ وما بعدها.

مجتمعه وتقاليده وطبيعة نظرته إلى الأشياء والأمور... وعلى سبيل المثال ففى معلقة امرئ القيس نرى أهم العناصر القصصية فى حكاية مغامراته ورحلاته وأحداث حياته وما إلى ذلك مما يدور فى إطار القص والإثارة... وعلى غرار امرئ القيس نرى كثرة من الشعراء الجاهليين فى بعض ما قدموا مثل الأعشى فى مقطوعاته التى تحدث فيها عن الملوك والقرون الخالية، ولقيط بن يعمر الإيادى فى عينيته وعمرو بن كلثوم فى معلقته والشنفرى فى تائيته ولاميته... بل إن بعض الشعراء استطاع أن يتعمق أغوار النفس البشرية فى لحظة من لحظات ضعفها ويبرز صورتها فى قالب قصصى ممتع على نحو ما صنع حاتم الطائى فى قوله :

وداع دعا بعد الهُدوّ كأنما ∴ يقاتل أهوال السُرى وتقاتله
دعا يائسا شبه الجنون وما به ∴ جنون ولكن كيد أمرٍ يحاوله
فلما سمعت الصوت أقبلت نحوه ∴ بصوت كريم الجَدّ حلوٍ شمائله
فأبرزت نارى ثم أثقبت ضوءها ∴ وأخرجت كلبى وهو فى البيت داخله
وقلت له أهلا وسهلا ومرحبا ∴ رشدت ولم أُقعد إليه أسائله
وقمت إلى بَركٍ هجان أعده ∴ لوجبة حقٍّ نازل أنا فاعله
بأبيض خطت نعله حيث أدركت ∴ من الأرض لم تَخْطَل علىّ حمائله
فجال قليلا واتقانى بخيره ∴ سناما وأملاه من النّىّ كاهله
فخرّ وظيفُ القَرْم فى نصف ساقه ∴ وذاك عقال لا يُنشّط عاقله
بذلك أوصانى أبى وبمثله ∴ كذلك أوصاه قديما أوائله[1].

(١) بعد الهدو: بعد أن هدأ الليل ونام الناس - السرى: السير بالليل - كيد أمر يحاوله: أى حيلة يحتال بها لعل أحدا يسمعه فينقذه - كريم الجد: كريم الأصل والجد أبو الأب - الشمائل: الصفات والمفرد شمال - أثقبت ضؤها: ألهبتها - رشدت بمعنى هُديت إلى الرشد والصواب - برك هجان: البرك: فى الإبل والهجان الكريمة - لوجبة حق نازل أى لأداء واجب على أن انهض به بنزول هذا الضيف على والوجبه اسم مرة - بأبيض خطت نعله: الأبيض السيف ونعله حديدة فى أسفل غمده - لم تخطل على حمائله: لم تضطرب وتتثنى - جال: تحرك واضطرب - النى: الشحم - كاهله:

والشاعر فى هذه الأبيات بتحدث عن سائر بالصحراء فى جوف الليل اشتبهت عليه المسالك وأوحشه الظلام ووقع فى صراع شديد مع أهوال الليل واستبد به خوف رهيب فصرخ صرخة شبه مجنونة وما كان مجنونا ولكنه أراد بهذه الصرخة أن يهب نائم أو يسمع صيحته جواد كريم فينقذه مما هو فيه من شدة وكرب... وسمعه حاتم فهب إليه هبة رجل كريم الأصل حلو الخلق وجاوبه بصوت أراد أن يبعث به الطمأنينة إلى نفسه وبادر إلى ناره فأبرزها وزاد فى إشعالها وأخرج كلبه لينبح لعل هذا السارى يهتدى بنباحه... واهتدى شريد الليل إلى حاتم فهش للقائه ورحب به ولم يطل عليه السؤال بل سارع إلى إيله الكريمة التى أعدها لِقرى الضيفان ومعه سيفه الذى مست نعله الأرض ولم تضطرب حمائله لطول صاحبه.. وفزعت الإبل لرؤيتها حاتما واضطربت فجعلت بينه وبينها فحلا من أكرم فحولها وأعظمها شحما ولحما فضربه حاتم بسيفه ضربة أسقطت خفه إلى نصف ساقه وكانت هذه الضربة كأنها عقال له لا يحتاج صاحبه إلى شده لأن البعير لن يقوى على الإفلات منه... وقد صنع حاتم فى هذا الموقف ما وصاه به أبوه وما تلقاه أبوه عن آبائه وأجداده الذين ورثوه المجد وعلموه الجود... وهكذا جاءت هذه الأبيات فى صورة قصة من وحى البادية وحياة الصحراء وما كان فيها من مخاطر وأهوال يتعرض لها السائرون بالليل وما كان من إيقاد النيران ونباح الكلاب ليهتدى بها الضالون فى ظلمات الليل الرهيب وليحظوا بلقاء جواد كريم يهب لنجدتهم والترحيب بهم ونحر كرائم الإبل لهم والأبيات تعبر بألفاظها القوية وأسلوبها الجزل وصورها البدوية المثيرة عن هذه المعانى كلها كما أنها تصور شخصية حاتم الطائى وما كان يتفوق به على أقرانه من مراتب الجود والكرم والمروءة والشهامة وغيرها من الصفات التى كانوا يحرصون على الاتصاف بها وتسجيلها فيما ينشدون من أشعار.

=الكاهل مقدم أعلى الظهر مما يلى العنق - خر: سقط - وظيف القرم: الوظيف الخف والقرم: الفحل الكريم من الإبل لا يركب ولا يحمل عليه- عقال: رباط - لا ينشط عاقله: لا يحتاج إلى شده لأن عقدته لا تحل.

ومن مظاهر التعبير الإيحائى الجميل قوله فى البيت الخامس "رشدت" فقد جاء دقيقا وجميلا فى موضعه بعد الحيرة والضلال.. وفى البيت السابع كناية عن صفة يعتز بها العربى ويزهو وهى طول القامة واعتدالها ودلالة ذلك على السيادة والشرف والقوة وسر جمال الكناية أنها تعطى المعنى مصحوبا بالدليل ودليل طول القامة واعتدالها هو أن نعل السيف يمس الأرض ويخط فيها دون أن تضطرب الحمائل أو تنثنى وما ذلك إلا لطول قامة حامل السيف - وفى البيت التاسع كناية عن رقدة الاستسلام النهائى للذبح وهى الرقدة التى لا قيام بعدها.

وهناك قصيدة الحطيئة الشاعر المخضرم التى يقول فيها:

وطاوى ثلاثٍ عاصبِ البطن مُرْمِلٍ ∴ ببيداءَ لم يعرف بها ساكنٌ رسما
أخى جَفْوة فيه من الإنس وحشة ∴ يرى البؤس فيها من شراسته نُعْمى
وأفرد فى شِعبٍ عجوزا إزاءها ∴ ثلاثة أشباحٍ تخالهم بَهْما
حُفاة عُراة ما اغتذوا خُبزَ ملّةٍ ∴ ولا عرفوا للبُرّ مذ خُلقوا طعما
رأى شبَحا وسط الظلام فراعه ∴ فلما رأى ضيفا تشمَّر وأهتَما
فقال: هيا ربَّاه ضيف ولا قِرى ∴ بحقك لا تحرمه تا الليلةَ اللحما
فقال ابنُه لما رآه بحيرة ∴ أيا أبت اذبحنى ويسِّر له طعما
ولا تعتذر بالعُدْم عنّ الذى طرا ∴ يظن لنا مالا فيُوسعنا ذما
فروّى قليلا ثم أحجم بُرهة ∴ وإن هو لم يذبح فتاه فقد همّا
فبيناهما عنّت على البعد عانةٌ ∴ قد انتظمت من خلف مسحلها نظما
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها ∴ على أنه منها إلى دمها أظما
فأمهلها حتى تروَّت عطاشها ∴ فأرسل فيها من كنانته سهما
فخرّت نحوص ذات جحش سمينة ∴ قد اكتنزت لحما وقد طُبِّقت شحما
فيابشره إذ جرها نحو قومه ∴ ويابشرهم لما رأوا كَلْمها يَدْمَى
وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم ∴ وما غرِموا غُرما وقد غنموا غُنْما
وبات أبوهم من بشاشته أبا ∴ لضيفهم والأم من بشرها أما[1].

(١) الحطيئة: أبو مليكة جرول بن أوس أحد الشعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام.

هذه القصيدة تمثل قصة شعرية مثيرة بحكايتها وأحداثها وأشخاصها وعقدتها وحلها وما فيها من حوار ومالها من إطار زمانى وبيئة مكانية وما تركز عليه من تصوير للكرم العربى ومراعاة حق الضيف من البرّبه والبشاشة فى وجهه مهما يكن ضيق ذات اليد وسوء الحال وإحساس الغلام بحرج الموقف وحيرة أبيه وما اعتراه من هم وحزن لفقره وقلة حيلته فإذا به يقدم على عرض مثير يرى فيه حلا للمشكلة وخلاصا من الأزمة وفكاكا من العقدة فيقول لأبيه: "يا أبت اذبحنى وهيئ لضيفك طعاما من لحمى" لكن الوالد يتروى ويتمهل لعل الله ان يوافيه بفرج قريب ويظهر الصراع قويا عنيفا حين هم الوالد بذبح ولده رعاية لحق الضيف لكنه يحجم ويتوقف رعاية للرحمة وعاطفة الابوه وتغليبا للروح الإنسانى على كل اعتبار. ثم يأتى حل هذه العقدة أو تفريج هذه الأزمة ممثلا فى مفاجأة لم تكن متوقعة إذ يظهر على البعد قطيع من حمر الوحش منطلقة نحو الماء فانساب الأعرابى نحوها فى خفة وحذر وأمهلها قليلا حتى ارتوت من الماء ثم أطلق عليها سهما أصاب من إحداها مقتلا فظفر بصيد ثمين كان طعاما شهيا لضيفه ولأفراد أسرته – وتم بذلك انفراج الأزمة وتمام الفرحة.

وسواء أكانت هذه القصيدة من شعر الحطيئة الجاهلى أم الإسلامى فإن لها دلالتها على ما نقول من وجود القصة فى شعرنا العربى بمستوى رائع من البناء الفنى المحكم الذى نماه فكر الحطيئة وخياله وغذته شاعريته وأضفت عليه موهبته روعة الجمال وسحر البيان وأصالة الفن وجلال العنصر الإنسانى العالى الرفيع..

- طاوى ثلاث: جائع من ثلاث ليال – مرمل: فقير فقد زاده – البيداء: الصحراء – الرسم: آثار الديار – اخى جفوة: غليظ الطبع، – الشعب: الطريق فى الجبل – البهم: صغار الضأن والماعز – خبز الملة: خبز ينضج على الرماد الحار – البر: القمح – راعه: أخافه – القرى: ما يقدم للضيف من طعام – العدم: الفقر – الذى طرأ أى طرأ بمعنى نزل علينا ضيفا روى قليلا: فكر وتدبر فى الأمر – عنت: ظهرت – عانة قطيع من حمر الوحش، المِسْحَل: حمار الوحش – الكنانه جعبة السهام خرّت: سقطت – نحوص: أتان وهى أنثى الحمار – طبقت شحما عمها الشحم وغطاها – يدمى: يسيل منه الدم – غرموا غرما: خسروا خسارة وعكس الغرم الغنم بمعنى المكسب.

وليس يعنينا أن يكون القصص العربى على هيئة الملاحم التى كانت موجودة عند اليونان أو غيرهم ليس من حق أحد أن يلزم الشعر العربى بما التزم به غير أبناء البيئة العربية ولا أن يقيس اتجاهاته باتجاهات أخرى مغايرة لدى أقوام آخرين مهما كانت منزلتهم ومكانتهم إذ من المعلوم أن لكل بيئة ظروفها وطبيعتها وخصائصها كما أن لها فنونها وأساليبها وأذواق أبنائها وطرائق تعبيرهم ووسائلهم الفنية التى يتناولون بها مناحى الحياة وجوانبها المختلفة... ونحن فى حقيقة الأمر نهتم اهتماما بالغا بإزالة الغموض والإبهام عن تراث موجود فعلا نحاول أن نكشف عن جوهره ومعدنه للناس وما يحتوى عليه من قيم إنسانية خالدة وما يتسم به من ملامح العبقرية وشواهد الإبداع.

ولا شأن لنا بعد ذلك بما ليس بموجود فى تراثنا وأدبنا وإن كان له وجود فى آداب أخرى هذا لا يعنينا ولا يضيرنا بقدر ما يؤذى ويضر مثل هذا الكلام الذى يطلقه بعض الباحثين العرب مما يفهم منه إلحاق النقص والقصور بأدبنا العربى القديم وتراثنا التليد وإثبات العجز والتخلف لأوائلنا الأماجد الذين كانت مفخرتهم الفصاحة والبلاغة والبيان، من مثل ما يذكره محمد غنيمى هلال ويقرره من أن القصص مسرحيا كان أم غير مسرحى لم يلعب دورا كبيرا فى الأدب العربى فى تصويره قوى الإنسان وصراعها مع ما يعوقها من القوى الغيبية أو البشرية أو الطبيعية فى صورة موضوعية فنية يتوجه فيها الكاتب إلى الجمهور لتأييد قضية عامة من القضايا الاجتماعية والفلسفية أو تفنيدها وهذا فارق جوهرى بين الأدب العربى والآداب الغربية عامة بل يكاد يكون فارقاً كذلك بين الآداب السامية والآرية إذ أفاد الفرس من قصص القرآن ومن قصصهم الأسطورى فى نظم الملاحم وبرعوا فى القصص الفلسفية على نحو لم يعرفه العرب[1]، ونراه بعد ذلك يتلمس العلل والأسباب لهذا التخلف العربى فى المجال القصصى والمسرحى فيرجعها تارة إلى الجنس السامى وخصائصه التى لم تهيئه لمثل ما تهيأت له الشعوب الآرية وتارة أخرى للبيئة العربية وفقرها فى المناظر الطبيعية مما كان له أثره فى بساطة الخيال وضحالته وقلة الأساطير

(١) المدخل ص ٦٠٤ وما بعدها.

وسطحية معناها مما يقعد بالفكر عن التعمق والتشخيص فى خلق القصص أو المسرحيات على نحو ما كان عند اليونان وتارة ثالثة يرجعها إلى الروح القبلية التى عاش العرب فى ظلها والتى كانت تدفع إلى الاعتداد بالحقائق المأثورة والحوادث المروية والوقوف عندها وعدم التعمق فى الخيال والتشخيص.. ثم نراه يقول آخر الأمر "ولا شك أن لهذا كله أثراً فى الإنتاج الأدبى ومنه القصة والتمثيل ولكن كثيراً من العوامل السابقة كان متحققا - على نحو ما - لدى الإيرانيين ولم يعفهم ذلك عن فهم القصة وعن نظم الملاحم وفى هذا ما يجعلنا نعتقد أن للجنس أثراً فى خلق الأدب الموضوعى أو توجيه الميول إلى استثماره إلى جانب تأثير البيئة والنظم القبلية المشار إليها".

بيد أنه يعود فيمحو أثر خصائص الجنس إذ يقول "ولكن نكرر ما قلناه سابقا من أن عامل الجنس ليس جبريا آليا فى نتائجه إذ قد يمحى أمام التأثر بالتيارات الفكرية العالمية إذا قيض لها من يستغلها من ذوى المواهب بين الشعوب.."[1].

هذا هو الكلام الذى نرفضه ونأباه ونخشى نتائجه وسوء عقباه لما سبق أن قلناه وبيَّناه من أنه ليس لأحد أن يلزم الشاعر العربى بما التزم به غير أبناء البيئة العربية ولا أن يقيس اتجاهات الشعر العربى باتجاهات أخرى مغايرة فى آداب أقوام آخرين وأشعارهم، ولا أن يتلمس العلل والأسباب لعدم وجود الملاحم والمسرحيات فى شعرنا العربى بينما هى من الفنون الأصيلة فى أشعار اليونان والرومان... وأقولها كلمة أرجو أن تكون مقبولة :

"يا قوم دعوا ما للعرب للعرب وما لليونان لليونان فهذه هى سنة الحياة".

وإذا كان الشعر الجاهلى مظهرا من مظاهر الحياة الجاهلية بأحداثها وأحوالها وظروفها الطبيعية والاجتماعية وعقائدها الدينية ومعارفها وعاداتها وتقاليدها ومشاعر أبنائها وخواطرهم وأمزجتهم الخاصة واتجاهاتهم المتميزة.. أقول : إذا كان الشعر الجاهلى كذلك فإن من واجبنا التعرف بتركيز وإيجاز،

(١) المدخل ص ٦٠٦ وما بعدها.

على أهم المؤثرات الخاصة فى الاتجاهات الفنية للشعر الجاهلى وسماته الذاتية وملامحه الشكلية والموضوعية.

ومن هذه المؤثرات :

أ - الاستعداد الفطرى وخصائص الجنس :

فالأمة العربية أمة شاعرة تهدر بالشعر طبائع أبنائها، وتشدو به ملكاتهم إذا حلوا وارتحلوا فى ظعنهم وإقامتهم، فى غدوهم ورواحهم عند الخوف والهلع وفى حال الطمأنينة والسكينة، إبَّان الحروب وأهوالها وتحت رايات السلام ووارف ظلها.. إنها أمة تمتاز بصفاء الطبع ودقة الحس وحضور البديهة ورقة الشعور وحدة العاطفة وسرعة الانفعال، والتأثر ولذلك غلب عليها الشعر الغنائى الذى يلبى نداء العاطفة ويستجيب لداعى الشعور فقد أتيح للأمة العربية منذ جاهليتها أن تكون أقوى الأمم شاعرية وأشعر الأمم السامية لفراغهم وحريتهم واستقلالهم وتوقد قرائحهم وحنينهم للمرابع وهيامهم بالطبيعة لكثرة حلهم وترحالهم وصفاء سمائهم وسكون صحرائهم وامتداد آفاقهم وطلاقة ألسنتهم وانطلاق مواهبهم كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

ب - طبيعة الإقليم :

فمما لاشك فيه أن الإقليم يطبع الشعب على غراره كما يؤثر فى أجسام أبنائه وألوانهم ولهجاتهم ومن هنا تأثر أدب الجاهلية بطبيعة البيئة البدوية وسمات الجزيرة العربية فكان بحق صورة صادقة لطبيعة البادية نرى فيه النجاد والوهاد والأطلال والكثبان والنوق والغزلان والآرام والشيح والقيصوم والحنوة والعرار.. وحين نزح العرب من جزيرتهم ميممين شطر الشام والعراق ومصر وهى أقاليم تتمتع بطيباتها وخيراتها وتحظى بالنعيم والازدهار وتزهى بالحضارة والعمران ومظاهر التقدم تأثرت آدابهم بهذه الأقاليم وتشكلت بأشكالها ووسمت بطابعها فلانت الأساليب وتجددت الأخيلة واتسعت الأغراض والمعانى وكان لكل إقليم توجهاته الخاصة وملامحه المميزة.

جـ - طبيعة العصر :

باعتباره عصرا جاهليا له تأثيره على الأجيال التى تعيش فيه بالظروف التى تلابسه وبعوامل التطور أو التدهور التى تصاحبه وبالأحداث الكبار التى تقع فيه وباختلاف القيم والمعايير التى تنشأ فى إطاره ومن هنا يتضح أن الزمن فى حد ذاته بوصفه المطلق ليس مقصودا لنا وإنما نركز على طبيعة العصر وما يصاحبه من ظروف وما يطرأ عليه من تغيير فى القيم والأخلاق والعادات وأنماط السلوك وما يصحبه من اتجاهات فكرية ونزعات دينية وحركات سياسية وتقلبات اجتماعية وتيارات علمية وثقافية وفنية وما إلى ذلك... ففى هذا العامل - أعنى طبيعة العصر - تتركز كل المؤثرات الفكرية والدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية والثقافية والفنية ومن غير شك فإن العصر الجاهلى بما يمثله من فطرة وبداوة وجرأة وتحرر وغطرسة وكبرياء وجهالة وسفه ووثنية وشرك ولهو وعبث وعصبية بغيضة وكرم ونجدة ومروءة وحمية وشهامة وتحرر من القيود وتحجر وجمود على العادات والتقاليد. ونفور من الذلة والهوان وخضوع للهوى والشهوات.. عالم عجيب غريب ملىء بالمتناقضات مشوب بالحيرة والقلق والتشكك والترقب والانتظار والتطلع إلى نوعية أخرى من نوعيات الحياة يسودها العقل المفكر والمنطق الواعى والتدبير المحكم والروح العالى والنفس الطموح والأواصر القوية والائتلاف المتين والسلوك الرشيد... وهذا العالم العجيب الغريب تجد صورة صادقة له وتأثيراً واضحا فعالا منه فى ذلك الأدب الجاهلى بما يمثله من منظوم ومنثور فى فنونه المختلفة وموضوعاته المتعددة وخصائصه الفنية وملامحه المميزة.

د - طبيعة اللغة العربية :

من الحقائق المقررة أن العرب أخذوا يوجهون عناية خاصة بلغتهم وينهضون بها نهوضا قويا وسريعا فى القرون الأولى للميلاد وقد ساعد على ذلك شعور العرب بكيانهم السياسى والقومى وحاجتهم إلى الوحدة والتجمع.

ومع أوائل القرن السادس الميلادى تكاملت الفصحى، وأخذت شكلها النهائى بدلالة هذه النصوص الشعرية الجاهلية التى يرجع أقدمها إلى أواخر القرن الخامس الميلادى، فمنذ هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل وأصبحت هناك لغة أدبية عامة هى هذه الفصحى التى ينظمون بها أشعارهم ويتحدثون بها فى حياتهم اليومية ولم تنتشر هذه اللغة بين القبائل الشمالية فحسب بل أخذت أيضا تغزو الجنوب وبخاصة فى مواطنه الشمالية المجاورة للشماليين كنجران ومناطق قبائل الأزد.

ويؤخذ من أقوال النقاة وأهل البصر من العلماء والباحثين القدامى والمحدثين أن هذه اللغة الفصحى إنما هى اللهجة القرشية التى نزل بها القرآن الكريم والتى عرفت بفصاحتها وصفائها وسهولتها وحسنها... يقول أبو نصر الفارابى : "كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانة عما فى النفس"[1].

وينقل أحمد بن فارس عن إسماعيل بن أبى عبيد الله قوله "أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم أن قريشا أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبى الرحمة محمدا صلى الله عليه وسلم فجعل قريشا قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش فى أمورهم.. وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب[2].... ومعنى ذلك أن اللهجة القرشية كانت ذائعة منتشرة بين العرب منذ أوائل العصر الجاهلى بدلالة أقدم ما وصل إلينا من نصوص شعرية نظمت بهذه اللهجة القرشية التى اتخذوها لغة أدبية عامة لهم والتى سميت بالفصحى...

---

(١) المزهر للسيوطى جـ ١ ص ١٢٨ طـ صبيح بمصر.

(٢) الصاحبى فى فقه اللغة ص ٢٣ طـ : المؤيد.

هذه اللغة العربية الفصحى كان لها الفضل الأكبر والنصيب الأوفر فى تحمل عبء الأداء الشاعرى على خير وجه وأكمل صورة. وإظهار ملامح الشاعرية العربية فى أقوى مظاهرها، وأدق خصائصها، وذروة توهجها وقمة تألقها وازدهارها، والتعبير عن شتى الأحاسيس والمشاعر، وسبحات الخيال، وسنحات الخواطر، وسائر الأغراض والموضوعات بأصالة وفن، وإبداع واقتدار..

ولقد سمت اللغة العربية إلى هذه الغاية وحلقت فى هذا الأفق بفضل ما تهيأ لها من مميزات فى دقة الأداء للمعانى واستخدام الألفاظ والأساليب وتعددها وتنوعها بتعدد المعنى والمدلول، وتنوع المواقف والاتجاهات، وسعتها وامتدادها وأعماقها وأبعادها، وكثرة مترادفاتها ومشتقاتها وصيغها وأبنيتها التركيبية، ووسائلها الفنية وطاقاتها الإبداعية واقتدارها على الإيجاز، وطواعيتها للإطناب فى مجال الإطناب بأكمل أداء، وأوفى بيان.

هـ - أسواق العرب :

فقد كان للعرب فى جاهليتهم أسواق عامة للتجارة وكانت هذه الأسواق تستمر طوال العام ينتقلون من بعضها إلى بعض ومن أشهر هذه الأسواق : عُكَاظ بين نخلة والطائف وكانت تعقد فى الأول من ذى القعدة إلى العشرين منه، ومجنَّة وهى موضع بمر الظهران أسفل مكة وكانوا يقيمون فيها إلى نهاية ذى القعدة، وذو المَجاز بمنى خلف عرفة وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذى الحجة ثم يقفون بعرفة فى اليوم التاسع.

ومع أن هذه الأسواق كانت أساسا مكانا للتجارة والمقايضة إلا أنها كانت أيضا ميدانا فسيحا لتبادل الآراء وعرض الأفكار والتشاور فى مشكلات الأمور ومجالا للمفاخرات والمنافرات والمحاورات ومعرضا لإذاعة المفاخر والمباهاة بالفصاحة والبلاغة والبيان والتغنى بروائع الشعر وسحر القول وجيد الخطب وبدائع اللسان.

وكان الرواة مع الشعراء، يلازمونهم فى هذه الأسواق وغيرها يتلقون منهم ويذيعون ما يتلقونه فى كل مكان وأهل البصر بالشعر من النقاد وأصحاب الذوق ينصتون ويحكمون ويبدون الرأى ويفاضلون بين الشعراء وكان للنابغة الذيبانى قبة حمراء تضرب له بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء تعرض عليه أشعارها وقصائدها فيحكم بينهم ويفضل بعضهم على بعض - وكان هذا الميدان الأدبى الفسيح بما فيه من آذان مرهفة وحس دقيق وذوق رقيق ورأى حصيف يحمل الشعراء والخطباء على التجويد والتهذيب والتنقيح وتدعوهم إلى تخير الألفاظ العذبة والأساليب المعبرة والمعانى الجيدة قصدا إلى الإفهام والإمتاع. كذلك كانت هذه الأسواق سببا فى التقريب بين لغات العرب ولهجاتهم ووسيلة من وسائل التفاهم اللغوى والتقارب بين اللهجات العربية المتفاوتة واختيار القبائل بعضها من بعض فى مواسم تلاقيها فى هذه الأسواق وكانت الآذان المرهفة والأذواق اللطيفة والأحاسيس اللماحة تعمل عملها فى النقد اللغوى فتلتقط كل قبيلة من لغات القبائل الأخرى ولهجاتها ما خفَّ على النطق، وعذب فى الألسنة، وحلا فى الأسماع، وظهرت فصاحته وحسن وقعه فى النفوس والأفهام وكان للقرشيين - كما بينا - حظ كبير فى هذا المجال فاقتبسوا من لهجات القبائل أعذبها ومن ألفاظهم أسهلها وأنصعها وأفصحها مما زاد فى ثراء اللغة العدنانية القرشية ودعا القبائل الأخرى إلى محاكاتها والاقتباس منها لمكانة قريش المرموقة وقيامها بأمر الحجيج ورعايتها لشئونهم وإشرافها على هذه الأسواق مما حدا بالشعراء الذين يريدون لشعرهم الذيوع والانتشار أن يتحروا لهجتها المختارة فى إذاعة محامد قبائلهم وأمجادها فكان لذلك آثار بعيدة المدى فى تهذيب اللغة العربية وتوحيدها وجمعها فى لغة مختارة هى لغة قريش ولسانها العربى المبين الذى نزل به القرآن الكريم والتقى عليه "ملايين" المسلمين.

ومع هذه الآثار الأدبية واللغوية لهذه الأسواق العربية فى الجاهلية فقد كان لها دور خطير فى توحيد العقائد والأخلاق والعادات والتلاقى على قدر مشترك من التفاهم الضرورى للنهوض بالمجتمع العربى والسير فى طريق الوحدة المرجوة التى بلغها بعد ظهور الإسلام ونبيه الكريم[1].

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ من ص ٨٧ إلى ص ٩٠.

و - أيام العرب :

والمقصود بها حروب العرب وملاحمها ووقائعها العظيمة التى هاجت قبائلهم وأثارت عصبياتهم وتغنى بها الشعراء فى أشعارهم وكانت مادة رائقة للسمَّار والمحدثين فى حقب طويلة وآماد بعيدة يقول ابن عبد ربه عن هذه الأيام " إنها مآثر الجاهلية، ومكارم الأخلاق السنية، قيل لبعض أصحاب رسول الله : ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم فى مجالسكم؟ قال : كنا نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليتنا "وهى ينبوع ثجَّاج من ينابيع الأدب وميدان فسيح من ميادين البيان بما اشتملت عليه من روائع القصص وبدائع القول ومأثور الحكم وبليغ الخطب وجيد الشعر كما أنها صورة صادقة لخواطر العرب ومشاعرهم وعاداتهم وتقاليدهم وأساليب حياتهم وكافة شئونهم فى الحرب والسلم والنجعة والاستقرار[1].

وهذه الأيام منها ما كان بين العرب والفرس كيوم ذى قار، وما كان بين النزاريين واليمنيين كيوم خزازى وما كان بين اليمنيين بعضهم مع بعض كيوم بعاث بين الأوس والخزرج، ويوم حليمة بين المناذرة والغساسنة وما كان بين النزاريين كيوم الزويرين بين ربيعة ومضروما كان بين المضريين بعضهم مع بعضهم كحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان وما كان بين الربعيين بعضهم مع بعض كحرب البسوس بين بكر وتغلب.

ولهذه الأيام أثر بالغ فى الأدب الجاهلى شعره ونثره فأكثر قصائد الفخر والحماسة والرثاء والهجاء ووصف المعارك وأدوات الحرب والقتال والتحريض وتصوير فظائع الحرب والدعوة إلى السلام ترتبط بهذه الأيام

---

(١) راجع هذه الأيام فى : العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٣ ص ٣٤٨، ص ٣٦٤، ص ٣٧٤، ابن الأثير جـ ١ ص ١٨٣، ٢٨٩، ٣١٠، جـ ٣ ص ٣٢٨، تاريخ الطبرى جـ ٢، ص ١٤٨ خزانة الأدب جـ ١ ص ٣٤٣، ٤٣٥، جـ ٣ ص ٤٠٣.

- مجمع الأمثال جـ ١ ص ٣٤٢، جـ ٢ ص ٤٠٢، الامالى جـ ١ ص ص١٦٩، ٤٥٤، الأغانى جـ ٢ ص ٩٧ دار الكتب وجـ ١٦ ص ٢٠٠.
- معجم البلدان جـ ١ ص ١٣٩، ص ٣٣٠، جـ ٣ ص ٣٥٢، جـ ٧ ص ٨.

ارتباطا وثيقا وكان الشعراء والخطباء من وراء الفوارس يذكون حميتهم ويلهبون شجاعتهم ويصفون خيلهم وسلاحهم ويشيدون ببطولتهم ومواقفهم ويندبون بقوافيهم الباكية صرعى الأيام ويحرضون على الثأر والانتقام، وقد ينفرون من الحرب وويلاتها ويحملون لقبائلهم دعوة السلام ويرفعون بأيديهم أغصان الزيتون.

ولا يقتصر أثر هذه الأيام على الشعر بل إنها تشغل جزءا كبيرا من النثر الجاهلى أيضا كما نجد فى خطبة هانئ بن قبيصة فى قومه يحرضهم على الحرب يوم ذى قار[1].

وفى سواها من الخطب وفى الكثير من المفاخرات والمنافرات والمحاورات والحكم والأمثال التى تتصل بأيام العرب فى جاهليتهم والأدب الذى خلفه لنا الشعراء والأدباء فى هذه الأيام يعد بحق صورة مفصلة لحياة العرب الاجتماعية والسياسية وصلاتهم بالأمم المجاورة لهم كما أنه يعد مرآة ناطقة بأخلاقهم وفضائلهم وعاداتهم وشمائلهم وما تحدثت به الرواة عن هذه الأيام وما ألف فيها من الكتب يشغل جانبا كبيرا فى الأدب العربى ومصادره وهو يمثل ألوانا طريفة من فنون الأدب المتصلة بالقصص والأساطير[2].

---

(١) انظر الأمالى جـ ١ ص ١٦٩.

(٢) لأبى عبيدة الراوية المتوفى عام ٢٠٩ هـ كتاب صغير حوى خمسة وسبعين يوما وكتاب آخر جمع فيه ألفا ومائتى يوم ولأبى الفرج الأصفهانى المتوفى ٣٥٦ هـ كتاب فى أيام العرب جمع فيه ألفا وسبعمائة يوم.

الفصل الثانى
المعلقات

المعلقات :

وهى تمثل مرحلة النضج الفنى والاستواء التام فى القصيدة الجاهلية منذ أوائل العصر الجاهلى، وتعتبر من أجود وأروع ما وصل إلينا من التراث العربى الحافل : فصاحة وبيانا، وتجويدا وإبداعا، وجزالة لفظ، ومتانة أداء، ودقة معنى، وسعة خيال، وبراعة أسلوب، واستقامة وزن وامتداد قافية، وأصدق تصوير لحياتهم وطباعهم وخلائقهم وعاداتهم وتقاليدهم، وأوفى وصفا لبيئتهم على سعتها وامتداد آفاقها واكتمال مشاهدها، ببواديها وقفارها ووهادها ونجادها وروابيها ووديانها، وسهولها وجبالها، ووبرها ومدرها، ووحشها وطيرها وحيوانها ونباتها وجمادها وأنهارها وآبارها... وما جرى فيها من أحداث وما شهدته من وقائع وما تتابع عليها من أيام وتمتاز المعلقات بطولها وامتدادها وتعدد أغراضها وتنوع مناحيها وجمال معانيها، وسحر أساليبها، وشدة أسرها، وما تشتمل عليه من تشبيهات رائعة، واستعارت نادرة، وكنايات طريفة، ومجازات دقيقة، وإيحاءات بارعة وثروة لغوية طائلة، والمشهور أنها سبع قصائد طوال[1]:

١ - لامرئ القيس ومطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ∴ بِسقْط اللِّوى بين الدَّخُول فحَوْمل

٢ - ولزُهَيْر بن أبى سُلمى ومطلعها :

أمِن أمِّ أوْفى دِمْنَة لم تكلم ∴ بحَوْمانة الدَّراج فالمُتَثَلَّم

٣ - ولطَرَفَة بن العبد ومطلعها :

لخَوْلَةَ أطلال ببُرْقَة ثَهْمَدِ ∴ تلوح كباقى الوشْم فى ظاهرِ اليد

---

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلى، والعصر الجاهلى من ص ١٧٦ إلى ص ١٨٢.

٤ – ولعنترة بن شدَّاد العبسى ومطلعها :

هـل غـادر الشـعراء مـن مُـتَرَدَّمِ ∴ أم هـل عرفـتَ الـدار بعـد توهُّـم

٥ – ولعمرو بن كلثوم ومطلعها :

ألا هُبِّـــى بصحنِـــك فاصبَحِينَـــا ∴ ولا تُبْقِـــى خمـــورَ الأَنْدَرِينَـــا

٦ – ولِلبيد بن ربيعة ومطلعها :

عفَـتِ الديـار محلُّهـا فمُقامُهـا ∴ بِمِنَـى تـأبَّد غَوْلُهـا فرِجَامُهـا

٧ – وللحارث بن حِلِّزة ومطلعها :

آذنتنـــا ببينِهـــا أســـماء ∴ ربَّ ثَـاوٍ يُمَـلُّ منـــه الثَّـواء

وكان أول من جمع هذه القصائد السبع الطوال .. حماد الراوية ١٥٥هـ فى أواخر عصر بنى أمية وأوائل العصر العباسى وذلك أنه رأى زهد الناس فى الشعر فجمع لهم هذه القصائد السبع وقال : هذه هى المشهورات وقد جمعت هذه القصائد السبع بعد جمع حماد لها جمعا آخر مع قصائد أخرى يبلغ جميعها تسعا وأربعين قصيدة قال عنها المُفضَّل الضَّبِىُّ : "إنها عيون أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام، وأنفس شعر كل رجل منهم وهى التى جمعها أبو زيد محمد ابن أبى الخطاب القرشى فى كتابه "جمهرة أشعار العرب" ويخالف المفضل حمادا فى أصحاب هذه القصائد السبع فهم عنده، امرؤ القيس، وزهير والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب "السموط" فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع أهل العلم والمعرفة "ثم ذكر بعد هذا : السبع المجمهرات والسبع المنتقيات، والسبع المذهبات، والسبع المراثى، والسبع المشربات، والسبع الملحمات، فهذه جملة التسع والأربعين قصيدة التى جمعها المفضل الضبى ١٦٨ هـ، أو ١٧١ هـ، أو ١٧٨ هـ، ومطلع قصيدة النابغة عند أبى زيد القرشى فى جمهرة أشعار العرب،

عُوجُـو فحيُّـوا لنُعْـم دِمنـةَ الـدار ∴ مـاذا تُحيُّـون مـن نُـؤْيٍ وأحجـار

وعند التبريزى قصيدته الدالية :

يـــا دارميَّـــة بالعَلْيـــاء فالسَّـــنَد ∴ أقوت وطـال عليهـا سـالفُ الأبـد

ومطلع قصيدة الأعشى :

ودِّع هريـرة إنَّ الرَّكْـب مرتحـل ∴ وهل تُطِيق وداعـا أيُّهـا الرَّجُـل؟

ويعد بعضهم قصيدته التى مطلعها :

مـــا بكـــاء الديـــار بـــالأطلال ∴ وســـؤالى ومـــا تـــرد ســـؤالى

وبعضهم يذكر طويلته فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم :

ألـم تغتمـض عينـاك ليلـة أرمـدا ∴ وبـتَّ كمـا بـات السـليم مسـهَّدا

وبعض الرواة يرى أن المعلقات ثمان ويجعلها بعضهم عشرا بإضافة النابغة والأعشى وعبيد بن الأبرص فى قصيدته :

أقفـــر مـــن أهلـــه ملحـــوب ∴ فالقُطْبيـــــأت فـــــالذَّنُوبُ

وبُدِّلـــتْ منهـــم وحوشـــا ∴ وغـــيَّرت حالَهـــا الخُطُـــوبُ

وقد ورد كلام كثير فى شأن تسمية هذه القصائد الطوال الجياد بالمعلقات، وبادئ ذى بدء نقول إن الخلاف حول التسمية وأسبابها لا يغير من الأمر شيئاً ولا يقدم ولا يؤخر لأننا إزاء أعمال لها وزنها وثقلها بمحتواها الشعرى ونهجها الفنى وأسلوبها البديع ولا ضير من عرض أقوال بعض المتقدمين من أدباء العرب ونقادهم متبوعة بآراء بعض المعاصرين من الأدباء والنقاد ومؤرخى الأدب العربى : يقول أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد "الشعر ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها والمقيد لأيامها، والشاهد على حكامها، حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها فى أستار الكعبة فمنه يقال : مذهبة امرئ القيس، ومذهبة زهير، والمذهبات سبع، وقد يقال لها المعلقات"(١).

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ١١٦.

ويقول ابن رشيق صاحب "العمدة" : "وكانت المعلقات تسمى "المذهبات" وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتبت فى القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة فلذلك يقال "مذهبة فلان" إذا كانت أجود شعره، ذكر ذلك غير واحد من العلماء، وقيل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر قال : علقوا لنا هذه لتكون فى خزانته.."[1].

ويقول ابن خلدون : "إن العرب كانوا يعلقون أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم كما فعل امرؤ القيس والنابغة وزهير وعنترة وطرفة وعلقمة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه فى مضر على ما قيل فى سبب تسميتها بالمعلقات"[2].

ويقول البغدادى صاحب "خزانة الأدب" : "كان العرب فى جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر فلا يعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتى مكة فى موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى وكان فخرا لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب، قال أبو عمرو بن العلاء : وكانت العرب تجتمع فى كل عام تعرض أشعارها على هذا الحى من قريش..."[3].

أما أبو جعفر النحاس أحد شراح المعلقات سنة ٣٣٨ هـ فإنه يقول : "إن خبر تعليقها على الكعبة لا يعرفه أحد من الرواة، وأن حمادا حين رأى صدوف الناس عن الشعر وزهدهم فيه جمع لهم هذه القصائد السبع وقال : هذه هى المشهورات فسميت القصائد المشهورة[4] "ويرى أن تسميتها بالمعلقات يرجع إلى أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : "علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزانتى "ولعله يقصد بالملك : النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذى كان لديه

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٧٨.

(٢) المقدمة ص ٥١١.

(٣) خزانة الأدب جـ ١ ص ٨٧.

(٤) معجم الأدباء لياقوت (ترجمة حماد) جـ ١٠ ص ٢٦٦.

ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به كما يقول ابن سلام[1].

والشيخ أحمد الإسكندرى (١٩١٦) من المعاصرين يرى أن السبب فى تسميتها بالمعلقات أن العرب كانوا يكتبون فى رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق فى جدار الرواق أو الخيمة بعيدة عن الأرض حرصا عليها من القرض أو نحو ذلك[2].

أما مصطفى صادق الرافعى ١٩٣٧م فإنه يقول "ولم نر أحدا ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليق ولا سمى تلك القصيدة بهذا الاسم كالجاحظ والمبرد وصاحب الجمهرة وصاحب الأغانى، مع أن جميعهم أوردوا فى كتبهم نتفا وأبياتا منها، وقد ذكر أبو الفرج صاحب الأغانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيبا بسوق عكاظ وقام بها فى موسم مكة فلو كان خبر التعليق صحيحا لما ضره أن يقول : فكتبتها العرب وعلقتها على ركن من أركان الكعبة"[3].

ومن المؤيدين لخبر التعليق على الكعبة من المستشرقين المؤرخ الفرنسى "سيديو" وهويرى أن المعلقات أنشدت فى الأسواق، وبعد اختيارها وقبولها علقت على الكعبة بعد أن كتبت بالذهب على نفيس القماش ليطلع عليها الذرية[4].

ومن المعارضين منهم المستشرق الألمانى "تولدكه" فهو يقول فى دائرة المعارف البريطانية "إن قصة القول بأن هذه القصائد كتبت بالذهب ترجع إلى تسميتها بالقصائد المذهبات وهى تسمية مجازية للدلالة على عظم أمرها، وكذلك يجب أن نؤول تسميتها بالمعلقات إلى هذا الأساس نفسه، فمن المحتمل جداً أن تعنى هذه التسمية أن هذه القصائد قد سمت إلى درجة : خاصة مجيدة، وأن هناك اشتقاقا آخر من المادة نفسها وهى كلمة "علق" ومعناها الشئ النفيس".

---

(١) طبقات الشعراء ص ١٧.

(٢) الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام ص ١٨٨.

(٣) تاريخ آداب العرب للرافعى جـ ٣ ص ١٨٨.

(٤) خلاصة تاريخ العرب لسيديو.

ويرى "كليمان هوار" أن المعلقات جمع معلقة بمعنى القلادة بدليل أنهم يسمونها أيضاً "السموط" بمعنى العقود والقلائد. وكما قلت فإن الأمر لا يستحق كل هذا العناء لأن الحكم على الأعمال الأدبية مرهون بالنصوص ذاتها ومالها من قيمة فنية وليس مرتبطالا بتعليقها على كعبة أو فى خزانة ملك أو خيمة على أنه من المعروف الذى لا ينكر أن العرب كان من عادتهم أنهم إذا أرادوا أن يوثقوا أمراً أو يؤكدوا عهدا كتبوا به كتابا وعلقوه فى جوف الكعبة تعظيما لشأنه: كما فعلوا بصحيفة مقاطعة بنى هاشم ... فليختلفوا ما شاء لهم الاختلاف وليثبتوا أو ينكروا ما شاء لهم الإثبات والإنكار فإنه مما لا خلاف فيه ولا مجال لإنكاره أن هذه القصائد من خير شعر العرب وأدله على لغتهم وبلاغتهم ووصف حياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية ، بل إنها سجل دقيق حافل بتاريخ العرب فى شتى المجالات مع ما تمتاز به من سحر البلاغة وسمو البيان وجودة الطبع وأصالة الفطرة والموهبة وروعة الإبداع.

وقد عنى العلماء بجمعها وتحقيقها وشرحها شروحا مختلفة مختصرة ومطولة.

ومن شراح هذه القصائد أبو بكرالبطليوسى ت ١٩٤هـ وأبو جعفر بن النحاس ت ٣٣٨هـ، وأبو علىالثعالبى ت ٣٥٦هـ وأبو زكريا بن الخطيب التبريزى ت ٥٠٢هـ والدميرى صاحب حياة الحيوان ت (٨٠٨ هـ) والزوزنى أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين ت ٤٨١ هـ وهى مشروحة أيضا فى جمهرة اشعار العرب لابى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ت ١٧٠هـ، ومحمد بدر الدين ابو فراس التعسانى الحلبى المتوفى فى القرن الرابع عشر الهجرى.

ولقد عرف المستشرقون المعلقات وعنوا بها عناية كبيرة وأولوها اهتماما بالغا وقاموا بتحقيقها والتعليق عليها وترجمة بعضها إلى لغاتهم مع الشرح والبيان ومن ذلك ترجمة.. "نؤلدكه" لمعلقة النابغة وزهير والأعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم إلى الألمانية مع شرح واف لها كما ترجمها إلى الإنجليزية شعرا بشئ من التصرف "الفرد بلنت" "ولادى ان بلنت"، ومن أشهر طبعات

المعلقات طبعة "ليبسيك" بعناية العلامة أرنولد عام ١٨٥٠م كما طبعها سير "شارلزليل" عام ١٨٩٤ بكلكتا(١).

والاهتمام البالغ بالمعلقات من جانب النقاد والدارسين والباحثين من العرب والمستشرقين والعلماء والأدباء والرواة فى شتى العصور لهو أقوى دليل على مالها من مكانة مرموقة ومنزلة رفيعة وقدر كبير بين سائر الآداب القديمة والحديثة على السواء.

إنها بحق من أعظم الأعمال الفنية فى العصر الجاهلى وأبعدها أثرا وأعلاها ذكرا فى سائر العصور، وقد ظلت نموذجا يقتدى به ومثلا أعلى يحاكيه الشعراء على اختلاف عصورهم الأدبية واتجاهاتهم الفنية ولا تزال حتى اليوم تتألق بهاء وجلالا، وتسمو سحرا وبيانا، وتفيض روعة وإبداعا، وتزهو أناقة لفظ وحلاوة جرس ومتانة أداء وبلاغة عبارة، ونضارة ديباجة، وأصالة طبع وإشراقة حكمة، لقد أثبتت الدراسات النقدية الواعية للمعلقات أن الشعر الجاهلى شعر قادر بصوره وكلماته وموسيقاه على أن يعبر عن أقوى المشاعر وأدقها فى زمنه وأنه لم يفتقر لحظة إلى الإحساس بالعصر والفهم الصحيح للحياة الإنسانية بكل خلجاتها ونبضاتها وأفكارها وملامحها والتمازج القوى الفعال بين الفرد والجماعة والتلاقى الحيوى المثير فى المشاعر والأحاسيس، وما وراء الوعى والإدراك، والشعر الجاهلى بذلك يمتلك القوى الإيحائية التى لا تقف عند حدود المعنى الظاهرى والتى تحتاج إلى تتبع الصور وتلمس الأبعاد التى تنطوى وراء القصيدة بكل أجزائها ومقطعاتها، ففى معلقة مثل معلقة "لبيد" ومعلقة "طرفة" وغيرهما يتحقق التصوير الإيحائى الذى تكون فيه علاقة الصورة الشعرية الواحدة ببقية الصور علاقة حية نابضة مثيرة(٢).

---

(١) البناء الفنى للقصيدة العربية لخفاجى ص٤٩.

(٢) قضايا النقد الأدبى والبلاغة لمحمد زكى العشماوى ص٢٠٠ وما بعدها.

ومعلوم أن الصور إنما تصبح معيارا للعبقرية الأصيلة حين تشكلها عاطفة سائدة أو مجموعة من الأفكار والصور المترابطة التى تثيرها هذه العاطفة السائدة أو حينما تتحول فيها الكثرة إلى الوحدة أو حينما يضفى عليها الشاعر من روحه حياة إنسانية وفكرية[1].

ومعنى ذلك بوضوح وجلاء أن "المعلقات" – أو بعضها على أقل تقدير – كانت بحق نموذجا فنيا راقيا ونمطا إبداعيا متميزا بالمعايير المعتمدة الثابتة لدى الأقدمين وبكل المقاييس النقدية الدقيقة فى عرف المحدثين.

ففى هذه المعلقات تعبير عن الحياة الجاهلية بجوانبها المختلفة واتجاهاتها المتعددة وأنماطها المتنوعة... وفيها وصف دقيق للبيئة بكل مشاهدها وسائر ملامحها وقسماتها... وفيها انعكاس صادق وأمين لروح العصر السائدة وأخلاقه وقيمه ومدركاته وفيها إدراك واع عجيب للجوانب الإنسانية من خلال العصر وتحت حجاب البيئة الخاصة المتميزة.. وقد تمثل ذلك كله فى هذه الروائع بنسيج كلماتها، وبديع صورها، وسيولة أنغامها وعذوبة موسيقاها، ورهافة إحساسها، وتدفق مشاعرها وحيوية نبضها وإيقاعها، ودقة إشاراتها ورموزها، وصدق معانيها، وتوازن عناصرها، ووحدة شاعريتها.

وعن الوحدة الشعرية يتحدث الدكتور محمد زكى العشماوى فيقول: [2] "هذه الوحدة الشعرية التى تمثل وحدة الصراع بين العربى الجاهلى وبين الحياة من حوله هى سمة الشعر الجاهلى كله... فأنت قادر على أن تحققها فى أغراض الشعر المختلفة من غزل ووصف وفخر وهجاء وحماسة وغيرها، كما أنك قادر على أن تستجليها فى معلقة لبيد وفى غير معلقة لبيد، فهى متحققة عند امرئ القيس وطرفة وزهير والنابغة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وغير هؤلاء من شعراء".

---

(١) كولردج لمحمد مصطفى بدوى ص١٦٨. ط القاهرة ١٩٥٨.

(٢) قضايا النقد الأدبى والبلاغة ص١٩١ وما بعدها.

ويذهب الباحث إلى أبعد من ذلك وهو يتحدث عن الوحدة العضوية فى معلقة لبيد ويقول[1]: "ونشهد لقد استطاعت معلقة لبيد:

أن تحقق هذه الوحدة العضوية على رغم طول القصيدة وتعدد أقسامها وانتقالها من غرض إلى غرض، فقد تمكنت بصيرة لبيد وقدرته على النفاذ إلى ما تحت حجاب عصره أن يعكس لنا صورة هذا الصراع بين الإنسان والحياة، وأن ننفذ من خلاله إلى إبراز صورة متكاملة تعاونت فيها سائر الأجزاء وهيمن فيها الإحساس الواحد، ولم يكن تحقيق هذه الوحدة فى معلقة لبيد راجعا إلى حسن التخلص من غرض إلى غرض، أو إلى تنظيم أجزاء القصيدة وحسن ترتيبها أو إلى التسلسل المنطقى الذى تجده بين مقطوعاتها، وإنما الذى ساعد على تحقيق هذه الوحدة قدرة القصيدة على نقل إحساس واحد مهيمن عن طريق صورها وكلماتها وخصائص أسلوبها ذلك الأسلوب التركيبى الذى يؤلف بين المتباعدات والمتناقضات والذى ينشأ من الصراع بين ما هو منطقى وبين ما هو غير منطقى، بين اللاوعى الفردى واللاوعى الجماعى، بحيث يصبح من السهل على من يقرأ القصيدة قراءة واعية مستنبطا كل ما فيها من دلالات رمزية وغير رمزية أن يكشف فى تحليله عن النزعة الغالبة فيها والتى تسودها "مقطوعات وأبياتا على نحو ما حاولنا من دراستنا لها".

وتعتبر "المعلقات" من المصادر الأساسية الأصيلة للشعر الجاهلى... ومن هذه المصادر أيضاً:

المفضليات:

نسبة إلى جامعها المفضل الضبى راوى الكوفة الثقة وهى مائة وست وعشرون قصيدة أضيف إليها أربع قصائد وجدت فى بعض النسخ، وابن النديم قال: "هى مائة وثمان وعشرون قصيدة وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عن المفضل والصحيحة التى رواها عنه ابن

(١) نفسه ص١٩٢ وما بعدها.

الاعرابى" [1]وقد نشرها المستشرق "ليال" بشرح ابن الأنبارى وفى مقدمة الشرح سند كامل لها يرفعه ابن الأنبارى إلى ابن الأعرابى تلميذ المفضل وربيبه، وهى موزعة على سبعة وستين شاعرا منهم سبعة وأربعون جاهليا وبينهم امرأة من بنى حنيفة ومجهول من اليهود ومسيحيان هما عبد المسيح بن عسلة الشيبانى، وجابر بن حنى التغلبى. والمفضليات مجموعة صحيحة موثقة من القصائد لايشوبها وضع أو انتحال وهى تمثل جوانب الحياة الجاهلية وتدور مع الأيام والأحداث وعلاقات القبائل بعضها ببعض وبملوك الحيرة والغساسنة ويصور كثير منها البيئة الطبيعية ومظاهر الحياة فيها كما أنها تشتمل على كثير من الكلمات المندثرة التى لم ترد فى المعاجم اللغوية على كثرة ما أثبتت من الألفاظ المهجورة مما يرفع الثقة بها ويؤكدها ويبعد عنها تهمة الشك والانتحال.

الأصمعيات:

نسبة إلى راويها الأصمعى راوية البصرة ويبلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين وهى موزعة على واحد وسبعين شاعرا منهم نحو أربعين جاهليا وبينهم يهوديان هما: شعيبة بن الغريض والسموأل والأصمعيات كالمفضليات فى الصحة والتوثيق وعلو الدرجة وقد جاء فيها أيضا كثير من الكلمات المهجورة التى لم تثبتها المعاجم [2]بيد أن الشراح لم يهتموا بها كما اهتموا بالمفضليات ولعل ذلك يرجع إلى قلة غريبها وإلى أن الأصمعى لم يرو كثيرا من القصائد كاملة بل اكتفى بمختارات منها.

(١) الفهرست ص١٠٢.

(٢) انظر الأصمعيات "الفهرس الثالث".

الفصل الثالث

معلقة لبيد

لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى المضرى من الشعراء المجيدين المشهود لهم بالفحولة والإبداع، أقر له النابغة حين سمع معلقته بأنه أشعر هوازن، وقد أدرك الإسلام وعاش طويلا حتى توفى عام ٤٢هـ. ومع أنه أدرك الإسلام إلا أنه معدود فى الشعراء الجاهليين لأنه ترك قول الشعر وانصرف عنه مكتفيا بالقرآن الكريم والدين الجديد:

الحمد لله إذا لم يأتنى أجلى ∴ حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

ذكره ابن سلام فى الطبقة الثالثة من الشعراء الجاهليين وعد معه فى طبقته النابغة الجعدى وأبا ذؤيب الهذلى والشماخ الذبيانى، وقال فيه: .. كان فارسا شاعرا شجاعا، وكان عذب المنطق، رقيق حواشى الكلام، وكان مسلما رجل صدق،(١).

وذكره أبو عبيدة فى الطبقة الثانية مع الأعشى وطرفة وقد وافقه على ذلك أبو زيد القرشى صاحب الجمهرة.

وشعر لبيد وليد شاعرية أصيلة وموهبة فطرية ونفس جياشة وشعور فياض وإحساس بالغ واقتدار نادر وإبداع عجيب. ومن أبرز أغراض شعره وأشهرها:

١ - الوصف الذى ضرب فيه بسهم وافر وأجاد إجادة بالغة، وكان فيه على قدر كبير من الدقة فى الأداء وبراعة التناول وجودة الإحاطة والاستقصاء.

٢ - الرثاء الذى تتجلى فيه حرارة الوجد ولوعة الحزن وتوقد العاطفة ولهيب الألم ومرارة الأسى وصدق المعاناة.

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص٤٤.

٣ - الفخر الذى يشكل جانبا كبيرا من شعره ويمثل ركنا أساسيا من فنه بفضل ما ركز فيه من إباء وشمم وكرم أصل وطيب عنصر وجلال حسب وشرف أرومة ورفعة منصب مما جعله يشدو بشعره فى هذا المجال بكل ما أوتى من حماسة وطلاقة، وشهامة وحمية وأن يختص قومه بهذا المديح دون أن يوجهه إلى أحد سواهم مهما كانت منزلته أنفة منه واعتزازا بنفسه وتعففا عن مظنة التعرض للنوال وانتظار العطاء.

ومع شهرة لبيد فى هذه الأغراض الثلاثة إلا أنه كان له غزل وحكمة لكنه كان مقلا فيهما.

وقد روى عنه قوله حين حضرته الوفاة وقد بلغ المائة والثلاثين عاما:

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما ∴ وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فإن حان يوما أن يموت أبوكما ∴ فلا تخمشا وجها ولا تحلقا الشعر
وقولا: هو المرء الذى لا صديقه ∴ أضاع ولا خان الخليل ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ∴ ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وللبيد معلقته المشهورة الحافلة بغريب اللغة ونادر الألفاظ وعجيب الصور وبديع الوصف وبراعة الإشارة والرمز وكمال الاستقصاء وتمام الاستيعاب وفصاحة العبارة وفخامة الأسلوب وجودة الصياغة ودقة الأداء..

وكانت البداية فيها - كما جرت عادة الشعراء الجاهليين - وقوفا على الأطلال ووصفا لما تبقى من آثار الديار وما أشاعته من إحساس بالوحشة والأسى والخواء والاكتئاب وكيف أنها أصبحت مرتعا للوحش ومأوى للسباع بعد أن أعشبت وأزهرت وأخصبتها دفقات المطر وسرى فيها تيار الحياة وأتيح للوحش من أسبابها ماهيأ له أن ينمو ويتكاثر.. وهكذا تكتمل الصورة بطرفيها المتناقضين ولونيها المتقابلين: حياة وحركة وخصوبة، ووحشة وخواء وعدم.

يقول لبيد:[1].

عفَت الديار محلها فمقامها ∴ بمنى تأبَّد غولها فرجامها
فمداقع الريَّان عُرِّى رسمها ∴ خَلَقًا كما ضمِن الوُحِيَّ سِلامها
دِمَن تجرَّمٌ بعد عهد أنيسها ∴ حِجَجَ خلون حلالها وحرامها
رُزِقت مرا بيعَ النجوم وصابها ∴ وَدِقَ الرواعد جودُها فرهامها
من كل سارية وغاد مُدْجِن ∴ وعشية متجاوب إرزامها
فعلا فروع الأيهقان وأطفلت ∴ بالجهلتين ظباؤها ونعامها
والعين ساكنة على أطلائها ∴ عُوذا تأجَّل بالفضاء بهامها[2]

والشاعر مشدود بكل قوة إلى ذكرياته الفائته متشبث بها. ومتعلق بمواطنها وديارها وهو فى حسرة بالغة على ما أصابها فأنت تراه واقفا مشدوها أمام أطلالها التى كشفت عن بعض معالمها السيول المتدفقة والأمطار الهاطلة

(١) شرح المعلقات العشر للزوزنى ص١٥٨ وما بعدها نشر مكتبة الحياة ببيروت.

(٢) عفت الديار عفوا وعفاء زالت وعفت الريح المنزل أزالته لازم ومتعد المحل: ما حل فيه لأيام معدودة والمقام ما طالت الإقامة به - منى: موضع بحمى ضرية - تأبد: توحش - الغول والرجام: جبلان معروفان - المدافع أماكن يندفع عنها الماء من الربى والأخياف والريان: جبل معروف الوحى: جمع الوحى وهو الكتاب والسلام: الحجارة الواحدة سلمة بكسر اللام - الدمن: جمع دمنة وهى الآثار وما سودوا بالرماد ونحوه - التجرم التكمل والانقطاع - العهد: اللقاء الحجج: السنون الواحدة حجة بكسر الحاء - حرامها: أراد الأشهر الحرم - مرابيع النجوم: الأنواء الربيعية والمراد أمطار الأنواء الربيعية - الودق: المطر، والرواعد ذوات الرعد من السحاب - الجود: المطر الشديد الكثير والرهام جمع رهمة وهى المطرة اللينة - السارية: السحابة الماطرة ليلا والغادى الآتى بالغداة ومدجن من الإدجان وهو إلباس الغيم السماء بظلامه لفرط كثافته وإرزامها تصويتها بالرعد - الأيهقان بفتح الهاء وضمها: الجرجير البرى - الجهلتان: جانبا الوادى - العين: البقر واحدتها عيناء لسعة عيونها وأطلاؤها أولادها - العوذ - حديثات النتاج جمع عائذ - البهام جمع بهمة وهى من أولاد الضأن خاصة ومجرى البقرة الوحشية مجرى الضائنة فى كل شئ.

وكأنها حروف مسطورة على صفحة كتاب أبلاه الزمن وعبثت به عوادى الأيام... وقف إزاءها يسائلها ويبثها حزنه وأساه... ولكن هيهات لحجر صلد أن يحس ويستجيب أو يشفى له غليلا...

وجلا السيولُ عن الطُّلول كأنها ∴ زُبرٌ تُجِدُّ متونها أقلامُها
أو رجع واشمة أُسِفَّ نؤورها ∴ كِفَفًا تعرَّض فوقهن وشامها
فوقفت أسألها وكيف سؤالنا ∴ صُمًّا خوالد ما يَبِين كلامها
عرِيَت وكان بها الجميع فأبكروا ∴ منا وغودر نُؤيها وثُمامها[1]

إنه فى موقفه هذا يذكر ولا ينسى لحظات اللوعة والفراق عند الوداع وكيف أنها كانت شديدة الوقع عنيفة الأثر، وكيف كانت المشاعر آنئذ مشدودة متوترة والنفس قلقة حائرة وقد هزتها من أعماقها قسوة الحياة وحكم الزمن الذى لا رجعة فيه ولا سبيل إلى دفعه... لقد انتهى كل شئ فى سرعة عجيبة ولحظات خاطفة مذهلة تلاشت على أثرها أطياف الجماعة المرتحلة ولم يبق منها سوى سراب خادع وصمت مطبق وسكون رهيب:

شاقَتْكَ ظُعْنُ الحى حين تحمَّلوا ∴ فتكنَّسوا قُطُنًا تَصِرُّ خيامها
من كل محفوف يُظِل عصيَّهُ ∴ زوج عليه كِلَّةٌ وقِرامها
زُجَلا كأن نعاج توضح فوقها ∴ وظباء وجرة عُطفًا أرآمها
حُفِزَت وزايلها السراب كأنها ∴ أجْزاع بِيشة أثْلها ورِضَامها[2]

---

(١) جلا: كشف - الزبر جمع زبور وهو الكتاب ومتونها ظهورها وأوساطها وأراد كلها والمعنى كأن الديار كتب تجدد الأقلام كتابتها: الرجع: الترديد والتجديد - الاسفاف: الذر - النؤور: ما يتخذ من دخان السراج والنار، الواشمة تشم يديها أى تضربها بالأبرة ثم تحشوها النؤور والكفف: الدارات من النقش الواحدة كفة وهى كل دارة وحلقة جعل إظهار السيل الأطلال كإظهار الواشمة الوشم - الصم: الصلاب خوالد: بواق. النؤى: ما يحفر حول البيت لينصب فيه الماء والثمام شجر رخو يجعل حول البيت ليمنع السيل ويقى الحر.

(٢) الظعن: النساء اللاتى فى الهودج - تحملوا: ارتحلوا بأحمالهم وتكنسوا: دخلوا فى الهوادج - القطن: جمع قطين وهم الجماعة والقطن ايضا الحشم تصر خيامها أى

ومع هذه الصورة القاتمة المفعمة بلوعة الفراق فإن الحياة تمضى فى طريقها ولا تتوقف وإرادة البقاء ومدافعة أسباب الفناء قائمة لا تتخلف ومجابهة الواقع بكل ما فيه من مرارة وضراوة أمر من شأنه أن يعرف ويؤلف.

بل ما تذكّر من نوارَ وقد نأت ∴ وتقطعت أسبابُها ورِمامها
مرّية حلّت بِفَيْد وجاورت ∴ أهل الحجاز فأين منك مرامها
بمشارق الجبلين أو بمُحجّر ∴ فتضمنتها فردة فَرُخامها
فصُوائقٍ إن أيمنت فمِظنّة ∴ فيها وحافُ القَهْر أو طِلخامها
فاقطع لُبانَةَ من تعرّض وصلُه ∴ ولشر واصل خُلّة صَرّامها
واحب المجامل بالجزيل وصرمه ∴ باقٍ إذا ظلعت وزاغ قوامها
بطليح أسفارٍ تركن بقيةً ∴ منها فأحنق صُلبُها وسَنَامها[1]

=تعجل بهن، الإبل فيسمع صرير الخيام والخشب من الهز - المحفوف: الهودج قد حف بالثياب من جوانبه - وعصيه: خشبه والزوج: النمط الواحد والكِلّة: الستر الرقيق والقرام ما يجعل فوق الفراش تحت الرجل والمرأة - زجلا: جماعات الواحدة زجلة - النعاج: البقر الوحشى - توضح ووجرة موضعان - عطفا: ملتفتات وقيل متحننات على أولادهن - حفزت دفعت واستحثت فى السير وزايلها السراب: فارقها أو حركها الأجزاع: جمع جزع وهو منعطف الوادى وبيشة: واد بعينه الأثل شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منها - الرضام: الحجارة العظام والواحدة رضمة والمعنى أن هذه الأحمال لما زايلها السراب تبينت كأنها شجر يخفق - بضرب الريح أو كأنها هذه الصخور المنضودة.

(١) بل: للخروج من حديث إلى حديث - نوار اسم المرأة التى يشبب بها - أسبابها: المراد حبال مودتها ووصالها والسبب: الحبل والرمام جمع رمة بضم الراء وكسرها وهى قطعة من الحبل خلقة ضعيفة - مرية: منسوبة إلى مرة بن عوف بن السعد بن ذبيان بن بغيض - فيد: بلدة معروفة على طريق مكة مجاورة أهل الحجاز ومرامها طلبها. والمراد بالجبلين جبلى طيئ أجأ وسلمى - المحَجّر: جبل آخر - فردة: جبل منفرد عن سائر الجبال ورخام أرض متصلة بفردة لذلك أضافها إليها وتضمن الموضع فلانا إذا حصل فيه. صوائق وحاف القهر وطلخام: مواضع معروفة وأيمنت أى أتت اليمن، وقوله. فمظنة فيها" أى مواضعها التى تظن فيها وتطلب والمعنى: أنها إن أتت اليمن حلت بوحاف القهر أو طلخام من صوائق. اللبانة: الحاجة، الخلة: المودة المتناهية والخليل، الصرام: القطاع ثم قال: وشر من وصل محبة أو حبيبا من قطعها وفى رواية ولخير واصل خلة بمعنى أن خير الواصلين من صرم من قطعة - حبوته بكذا: أعطيته إياه - المجامل: المصانع الجزيل: الود الجزيل والجزالة الكمال والتمام وأصله الفخامة والغلظ ومعنى ظلعت مالت وجارت أى إذا مالت مودته - بطليح أسفار

هكذا نرى الشاعر يحشد قواه لمواجهة الشعور بالمرارة والهزيمة والإمعان فى الذكريات التى لا تجدى ولا تنفع، وقد فارقته حبيبته وباعدت بينه وبينها قفار وديار، وانقطعت بينهما كل أسباب الاتصال فعلام هذا التشبث والتعلق بالمحال؟!. فلتكن القطيعة وليكن الفراق والنسيان... وهذا الموقف منه قد فرضه عليه واقع الحياة فى صراعها الأزلى ومتناقضاتها العجيبة التى هى سر من أسرار الكون وحقيقة بالغة من حقائق الوجود.

ومع هذه العزمة القوية على القطيعة والسلوان ينتقل الشاعر إلى وصف ناقته وهى وسيلة الارتحال والانتقال من مكان إلى مكان وكأنه يرمز بذلك إلى إرادة التغيير من حال إلى حال والأخذ بالوسائل والأسباب فى سلوك سبيل هذه الإرادة وهذا التصميم ومحاولة الارتفاع فوق الهموم والآلام والأحزان بصبر وثبات ومرونة وسرعة وقوة واقتدار.

ووصف لبيد لناقته يأتى فى معارض ثلاثة: الأول: تشبيه الناقة بالسحابة الحمراء التى خف مع الجنوب جهامها فانطلقت خفيفة مسرعة كأنها تسبح فى فضاء فسيح لا يعترضها عائق ولا يحول دون غايتها حائل لأنها قد انفكت من إسارها الأرضى وحلقت فى آفاق علوية لا سبيل لأحد عليها وكأن الشاعر بهذا التصوير يعبر عن انطلاقه وفكاكه من أسر التعلق والارتباط وخلاصه من ربقة القيود والجمود. وبذلك لا يصلح تعليق الدكتور محمد زكى العشماوى على هذه الصورة بأنها من ها النوع التقريرى الذى يقف عند حدود المشاكلة والمشابهة بين طرفى التشبيه ولا يتجاوز ذلك إلى إشاعة جو نفسى خاص[1].

وإذا تغالى لحمُها وتحسَّرت ∴ وتقطعت بعد الكَلال خِدامها
فلها هِيابُ فى الزمّام كأنها ∴ صَهْباء خفَّ مع الجنوب جَهامها[2]

أى بناقة معيية أضنتها الأسفار ولحق أى ضمر أضنتها والمعنى: انت قادر على قطيعته بركوب ناقة قد اعتادت الأسفار ومرنت عليها.

(١) قضايا النقد الأدبى والبلاغة ص١٦٠.

(٢) تغالى لحمها: ارتفع إلى رءوس العظام من الغلاء وهو الارتفاع - تحسرت أى صارت حسيرا أى كالة معيية عارية عن اللحم - الخدام: جمع خدم والخدم جمع خدمة

الثانى:

تشبيه الناقة بأتان وحشية قد حملت من فحل شديد الغيرة عليها يلازمها أينما تذهب يحميها من عبث الفحول بها والتعرض لها محتملا بالغ العناء، وشدة الأذى والبلاء مما ظهرت آثاره على جسده كدما وعضا وقشورا وبثورا، لكنه مع ذلك لم ينصع عن حمايتها والارتفاع بها فوق الآكام والصخور، وقد زاده تعلقا بها ما رآه من تمنعها عليه وإبائها وهى تجتاز مرحلة الوحام وقد كانت من قبل سمحة طيعة مما حدا بفحلها أن يزداد ريبة وشكا وحيرة وقلقا ويدفعه ذلك إلى مزيد من الأخذ بأسباب الاحتياط الشديد والحذر البالغ فيعتلى بها مكانا أشد ارتفاعا وأكثر أمنا نأيا بها عن مواطن الخطر ومزاحمة الفحول.. ويقضيان فترة من الزمان فى صحبة وادعة مطمئنة يطعمان النبات الرطب ويكتفيان به عن طلب الماء، حتى إذا ولت شهور الشتاء وحل الصيف واشتد لفح الحر، وجفت النباتات الرطبة واشتدت الحاجة إلى الماء لم يكن بد حينئذ من الانطلاق بحثا عنه مندفعين بسرعة الرياح تحركهما إرادة واحدة وعزمة صادقة وقد أثارا من خلفهما غبارا كثيفا ممتدا كأنه أذيال ثوب ضاف هفهاف أو كأنه دخان نار مشتعلة هبت عليها رياح الشمال فزادتها اشتعالا وخلط بها من الحطب الغض ما جعل دخانها يتكاثر ويمتد... وهو من خلال عدوه السريع لم يتراخ عن رعاية أنثاه والحرص عليها والتودد إليها حتى انتهيا إلى عين ثرة تتدفق منها المياه ويفيض بها نبع الحياة فيقبلان عليها بشغف ونهم وقد أحاط المكان غاب كثيف صرعت الرياح بعضه فأكفأته وظل باقيه قائما منتصبا وفى هذا المعرض الثانى من وصف الناقة الذى استغرق أحد عشر بيتا نلمح الإحساس بالحياة والحب والأمل، والسعى والدأب والحيوية والنشاط ودوافع التوتر والقلق والحرص على البقاء والرغبة فى السيطرة والاستحواز...

وهى سيور تشد بها النعال إلى أرساغ الإبل الهباب: النشاط - الصهباء: الحمراء يريد كأنها سحابة صهباء - الجهام: السحاب الذى أراق ماءه يقول: إذا كلت وعريت عن اللحم وتقطعت السيور التى تشد بها نعالها كان لها نشاط فى السير كأنها سحابة حمراء قد ذهبت الحبوب بقطعها التى هراقت ماءها فانفردت عنها.

يقول الشاعر:

أو مُلْمِعٌ وسَقَت لأحقبَ لاحه ∴ طردُ الفُحول وضربُها وكدامها
يعلو بها حدَبَ الإكام مُسحَّج ∴ قد رابه عصيانها ووحامها
بأحِزَّة الثَّلبوت يربأ فوقها ∴ قَفرَ المراقب خوفُها آرامُها
حتى إذا سلخا جُمَادى ستة ∴ جزْءا فطال صيامُه وصيامها
رجعا بأمرهما إلى ذى مِرَّةٍ ∴ حَصِدٍ ونَجْحُ صَرِيمة إبرامها
ورمى دوابرَها السَّفا وتهيَّجت ∴ ريحُ المصايف سومُها وسهامُها
فتنازعا سَبِطا يطير ظلاله ∴ كدخان مُشْعلَة يُشَبُّ ضِرامها
مشمولةٍ غُلِثت بنابت عَرْفَجٍ ∴ كدُخان نارٍ ساطعٍ أسنامها
فمضى وقدمها وكانت عادةً ∴ منه إذا هى عرَّدت إقدامها
فتوسطا عُرْضَ السَّرِىِّ وصدَّعها ∴ مسجُورةً متجاورا قُلاَّمها
محفوفةٌ وسط اليراع يُظلها ∴ منه مُصرَّعُ غابة وقيامها[1]

---

(١) ألمعت الأتان فهى ملمع : أشرق طبياها باللبن - وسقت : حملت - الأحقب : العير الذى فى وركيه بياض أو فى خاصرتيه - والمعنى أنها تشبه فى سيرها هذه الأتان التى حملت تولبا لمثل هذا الفحل الشديد الغيرة علىيها فهو يسوقها سوقا عنيفا - حدب الإكام: ما احدودب منها - السجح : القشر والخدش العنيف - الوحام اشتهاء الحبلى للشئ - الأحزة جمع حزيز وهو مثل القف والثلبوت موضع بعينه - يربأ : يستكشف ويرصد والمراقب : جمع مرقبة وهو الموضع الذى يقوم عليه الرقيب والآرام : أعلام الطريق الواحد آرم والمعنى أن العير يعلو بالأتان الآكام ويكون رقيبا لها مستكشفا ما يترصدها من خطر - جمادى : اسم للشتاء وجزأ الوحش يجزأ جزاء إذا اكتفى بالرطب عن الماء - إلى ذى مرة حصد إلى رأى محكم ذى قوة - الدوابر : مآخير الحوافر - السفا : شوك البهمى ضرب من الشوك - سومها وسهامها مرورها وشدة حرها - سبطا أى غبارا ممتدا طويلا كدخان مشتعلة، أى نار مشتعلة - مشمولة: هبت عليها ريح الشمال - غلثت : خلطت العرفج : ضرب من الشجر - أسنامها أعاليها شبه الغبار الكثيف الساطع من قوائم العير والأتان بدخان نار قد سطع اعاليها فى الاضطرام. التعريد : التأخر والجبن - العرض : الناحية - السَّرِى : النهر الصغير التصديع : التشقيق - السجر : الملء - القلام، ضرب من النبت - اليراع :

الثالث :

تشبيه الناقة بالبقرة المسبوعة التى شغلت بنفسها عن صغيرها فعادت تبحث عنه - رائحة غادية ترسل صيحات ملتاعة ملهوفة بلا جدوى، وقد تمثلت ذروة مأساتها حين اكتشفت جثة صغيرها معفرة فى التراب ممزقة الأشلاء مقطعة الأوصال وقد نهشته وفتكت به ذئاب مقتدرة على الفتك والافتراس... إنها المنية التى لا يطيش لها سهم ولا يستطيع أحد دفعها أو التصدى لها... ومضى الشاعر يصور جو الوحشة واللوعة والحزن والأسى الذى أحاط بالبقرة فى ليلتها الليلاء وفجيعتها النكراء فقد كانت ليلة مظلمة كئيبة تراكمت فيها السحب ولم ينقطع عنها المطر، ولم تجد البقرة ما تحتمى به سوى جوف شجرة منبوذة عن سائر الشجر وقد تقلصت أغصانها وانكمشت من شدة البرد.. وحتى الكثبان الرملية التى تحيط بها من كل جانب قد أوشكت على التساقط والانهيار إذ لا تكاد تقوى على التماسك، ولم ينته الأمر بها إلى هذا الحد بل إن صوتا باغتها وصل مسامعها وأيقظ أحاسيسها واستشعرت الخطر الداهم وشل الفزع حركتها فوقفت مبهوتة متحيرة لا تستطيع حراكا، بيد أنها أدركت بغريزتها أن وقفتها هذه لا تدرأ عنها خطرا ولا تدفع شرا فأطلقت ساقيها للريح وانطلقت فى عدو سريع وانصبت عليها سهام الرماة بلا جدوى وانطلقت وراءها كلاب الصيد المدربة لكنها لم تتردد لحظة وتصدت للكلاب تطعنها بقرن طويل كالرمح حدة ونفاذا وكانت الكلبة.. كساب "ضحية لها إذ صرعتها مضرجة بدمائها وما كادت الكلبة الثانية تتأهب للانقضاض عليها حتى لقيت مصير أختها.. وهكذا استخلصت البقرة من بين براثن الموت حياتها. وقد سبق أن أوردت هذه الأبيات الإحدى عشرة فى وصف البقرة المسبوعة والتى تبدأ بقول الشاعر :

أفتلك أم وحشية مسبوعة ∴ خذلت وهادية الصوار قوامها[1]

=القصب والمعنى أنهما وردا عينا ممتلئة فدخلا فيها من عرض نهرها وقد تجاور نبتها وأنها فى ظل قصب بعضه مصروع وبعضه قائم.

(١) انظر نماذج الوصف الجاهلى ص ١٢٠ وما بعدها.

وفى هذا المعرض الثالث تصوير بالغ الروعة والإبداع لم يكن فيه البيت الشعرى منفصلا عن سائر الأبيات نفسيا وشعوريا وإنما كان بحق خلية حية تنبض بالأحاسيس والمشاعر مع غيرها من الخلايا فى كيان عضوى واحد ليس فيه هذا الانقسام العاطفى المزعوم والتفتت الذى يتحدث عنه بعض الباحثين[1] باعتبار اختلاف الحالين الواردين فى وصف الناقة بالأتان الوحشية ووصفها بالبقرة المسبوعة بيد أننا إذا أمعنا النظر أدركنا أن كلا منهما رؤية الشاعر الجاهلى للحياة وموقفه منها فى إطار من حب الحياة ومن رهبة الموت وما يمثلانه من صراع نفسى ينعكس على حياة البدوى الجاهلى فى شتى جوانبها... غير أن إرادة الحياة ومواجهة المخاطر والصعاب بالعزيمة والإصرار كانت هى السمة الواضحة فى العرض المثير المتمثل فى موقف البقرة المسبوعة وما يرمز إليه الشاعر من سمات التحدى والاقتدار على مواجهة الصعاب والأخطار... فأنت ترى هذه الروح تطالعك من خلال حديث الشاعر إلى صاحبته "نوار" المفعم بالاعتزاز والثقة بالنفس والسيادة والبطولة والسماحة والكرم وحسن الصحبة والألفة مع الرفاق مما يغنيه عنها وينسيه ذكرياتها وأيامها ويثبت لها أنه قادر على التسلى والتعزى بمثل ما تسلت هى وتعزت بالرحلة والانتقال... استمع إليه يقول :

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحى ∴ واجتاب أردية السراب إكامها
أقضى اللُّبانة لا أفرط ريبة ∴ أو أن يلوم بحاجة لوامها
أو لم تكن تدرى نَوارُ بأننى ∴ وصَّال عقد حبائل جذَّامها
تراك أمكنة إذا لم أرضها ∴ أو يعتلق بعض النفوس حمامها
بل أنتِ لا تدرين كم من ليلة ∴ طلقٍ لذيذ لهوها وندامها
قد بتُّ سامرها وغاية تاجر ∴ وافيت إذ رُفِعت وعز مدامها
أغلى السِّباء بكل أدكن عاتق ∴ أو جَوْنة قدحت وفُضَّ ختامها[2]

---

(١) د. مصطفى بدوى ١٠١ دراسات فى الشعر والمسرح ص ٧ وما بعدها.

(٢) رقص اللوامع السراب ولبس الإكام أرديته كناية عن احتدام الهواجر - اللبانة : الحاجة يقول : بركوب هذه الناقة وإتعابها فى حر الهواجر أقضى وطرى ولا أفرط فى طلب بغيتى ولا أدع ريبة إلا أن يلومنى لائم - الحبائل : جمع حبالة وهى مستعارة

والشاعر فى هذه الأبيات يستخدم وسائل التعبير اللغوية والتصويرية ليؤكد لها حقيقة شخصيته وعظيم منزلته وقدره واقتداره وسخائه... ثم أنه حين يتطلب الأمر تضحية بالنفس دفاعا عن قومه وذودا عن حماهم يكون أول من يلبى النداء ويخوض غمرات الشدائد بشجاعة وإقدام وخبرة وحنكة وحسن قيادة وريادة وبراعة فروسية... ويمضى "لبيد" فى معلقته مفتخرا بقومه معددا فضائلهم ومناقبهم مشيدا بمواقفهم ورجاحة عقولهم وسماحة أخلاقهم وترفعهم عن الدنايا وتمسكهم بالشرف وإغاثتهم للملهوف ونجدتهم للصريخ وإقبالهم على وجوه البر والخير وغير ذلك مما يعد بحق نموذجا لروح الجماعة ومثلها العليا وأخلاقها السائدة وقيمها الخالدة...

مِن معشر سنت لهم آباؤهم ∴ ولكل قوم سنة وإمامها
لا يطبعون ولا يبور فعالهم ∴ إذ لا يميل مع الهوى أحلامها
فاقنع بما قسم المليك فإنما ∴ قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت فى معشر ∴ أوفى بأوفر حظنا قسامها
فبنى لنا بيتا رفيعا سمكه ∴ فسما إليه كهلها وغلامها
وهم السعاة إذا العشيرة أفظعت ∴ وهم فوارسها وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم ∴ والمرملات إذا تطاول عامها
وهم العشيرة أن يبطئ حاسد ∴ أو أن يميل مع العدو لئامها[1]

=للعهد والمودة هنا والجذم القطع يريد أنه يصل من يستحق الصلة ويقطع من يستحق القطيعة - يعتلق بعض النفوس حمامها : بمعنى إلا أن أموت فلا يمكن نفسى البراح - ليلة طلق: ساكنة لا حر فيها ولا قر والندام جمعه نديم وبمعنى المنادمة أيضا والمعنى: بل أنت تجهلين كثرة الليالى التى طابت لى بلهوها وبندمانها أو بمنادمتى الكرام فيها - التاجر : الخمار وغاية التاجر راية ينصبها الخمار ليعرف مكانه. يقول : وراية خمار أتيتها حين رفعت وغلت خمرها وعز وجودها - السباء شراء الخمر وإغلاء الشى اشتراؤه غاليا - الأدكن : الذى فيه دكنة أراد الزق الأدكن والجونة : السوداء - فض الختام : كسر خاتمها - قدحت : اغترف منها.

(١) يقول : إنه من قوم سنت لهم أسلافهم كسب رغائب المعالى واغتنامها لا تتدنس أعراضهم بعار ولا تفسد أفعالهم إذ لا تميل عقولهم مع أهوائهم. وإذا قسمت الأمانات

وبذلك كله تكون هذه المعلقة للبيد بن ربيعة العامرى انعكاسا لروح العصر، وادراكا للإنسانية من خلاله بألفاظه وعباراته وأفكاره ومعانيه وصوره وأخيلته وإيحاءاته ورموزه، والتفاتاته وإشاراته والتزامه بهذه الوحدة الشعرية التى يتمثل فيها روح العصر وجوهره والالتزام بقيمه وتقاليده والتصدى لتناقضات الحياة وصراع الإنسان من أجل البقاء وصموده أمام المعضلات وتحديه للمخاطر والأهوال كما يتمثل فيها التعبير عن الإحساس الواحد فى إطار مكتمل يؤلف بين هذه المتباعدات والمتناقضات وما يمكن أن يكون مستكنا فى أعماق النفس كامنا وراء الشعور والإحساس فى ومضات مشعة وبريق أخاذ ولمحات مضيئة تأخذ بمجامع القلوب والعقول إلى ما يمكن أن تتوجه إليه من دلالات وإيحاءات رموز وإشارات وهنا تتجلى ملامح العبقرية وتتمثل شواهد الإبداع.

والمعلقة ثمانية وثمانون بيتا يؤكد كل بيت منها على أصالة شاعرية لبيد وبراعته فى الوصف والتصوير والرمز، ودقته فى عرض ملامح الديار الباليه، والدّمن الخالية، والأطلال الدارسة، وامتزاج ذلك كله بأحاسيسه ومشاعره، وأساه ولوعته، ومبادئه وعقيدته، وعزته وأنفته، ودقة حسه ورهافته، وصفاء طبعه ونفاذ بصيرته...

= بين أقوام وفر وكمل قسمنا من الأمانة وقد بنى الله لنا بيت شرف ومجد رفيع القدر عالى المكانة - يسمو إليها كهل العشيرة وغلامها : السعاة : الماضون فى طريق المروءة والنجدة والخير - أفظعت : أصيبت بأمر فظيع يعنى : هم فرسان العشيرة عند قتالها وحكامها عند تخاصمها - المرملات : من نفذت أزوادهن والمعنى هم لمن جاوروهم وللنساء اللواتى نفذت أزوادهن بمنزلة الربيع إذا تطاول عامها لسوء حالها وهم العشيرة : أى وهم متوافقون متعاضدون - أن يبطئ حاسد : بمعنى كراهية أن يبطئ حاسد على قول البصريين أو بمعنى أن لا يبطئ حاسد على قول الكوفيين ويتعاضدون كراهية أن يبطئ الحساد بعضهم عن نصر بعض وميل لئامهم إلى الأعداء أو مظاهرتهم إياهم على الأقارب.

الفصل الرابع
"معلقة امرىء القيس"

وإذا كانت معلقة لبيد قد حظيت بهذا القدر الكبير من ثناء النقاد وتقديرهم وإعجابهم حتى من أولئك الذين هونوا من شأنه وحطوا من قدره فإن غيرها من المعلقات لا يقل عنها منزلة ولا يعد دونها قدرا.... ومعلوم أن هناك غير "لبيد" من الشعراء الجاهليين ممن يعدون فى الطبقة الأولى من أصحاب المعلقات ... وعلى سبيل المثال فإن امرأ القيس بن حجر الكندى يعد فى الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية دون منازع، وكثير من العلماء يجعلونه فى رأس الطبقة الأولى ويعتبرونه زعيم الشعراء غير مدافع لأنه سبقهم إلى لطف المعانى، واختراع الأخيلة وجودة العبارة وقد أوتى من أسباب الإجادة والإبداع فى التعبير والتصوير والاقتدار على الإثارة والإمتاع ما جعله على رأس شعراء الجاهلية بلا نزاع.. بل ما جعله أبا للشعر الجاهلى بل للشعر العربى جميعه[1] فهو الذى ألهم الشاعر العربى على مر العصور فكرة التشبية بل هو الذى وجهه إلى الإسراف فى استخدامه حتى عد ذلك ضربا رشيقا من ضروب الزخرف والبديع[2].

ولقد قال عنه محمد بن سلام الجمحى.. سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها واستحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء منها استيقاف الصحب والبكاء على الديار ورقة النسيب، وقرب المأخذ وشبه النساء بالظباء والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى وقيد الأوابد وأجاد فى التشبيه وفصل بين النسيب وبين المعنى وكان أحسن أهل طبقته تشبيها.....[3]، وقال الآمدى[4] إن امرأ القيس

---

(١) العصر الجاهلى لشوقى ضيف ص ٢٦٥.

(٢) نفسه ص ٢٦٣ نقلا عن كتاب "البديع" لابن المعتز.

(٣) طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٥٥ والشعر والشعراء جـ ١ ص ١١.

(٤) الموازنة للآمدى ص ٣٤٩ تحقيق محى الدين عبد الحميد مطبعة السعادة ط ثانية ١٩٥٤.

فاق سواه لأن الذى فى شعره من دقيق المعانى وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة فوق ما استعار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام.

إن معلقة امرئ القيس تعد أروع قصائده وأطولها وأحفلها بالأغراض المتنوعة التشبيهات البارعة والمعانى المبتكرة وألأوصاف الجيدة والاستعارات الرائعة.

وقد استهلها بالوقوف والاستيقاف على الديار وبكائها وذكر الحبيب والمنزل ولوعة الوجد ووقدة الحنين وما كان من محاولة أصحابه ورفاقه أن يخلصوه من همومه وأحزانه لكنه كان غارقا فى ذكرياته مندفعا فى بكائه مسترسلا فى زفراته ثم نراه ينتقل إلى الغزل والتشبيب بالمرأة ويعرض فنونا وألوانا من علاقاته بالنساء ومغامراته من أجلهن ودبيبه إليهن، وذكريات لهوه وعبثه معهن وفى ثنايا ذلك نراه يصف الليل والفرس والصيد والبرق والمطر ومرح الطيور ونشوتها بالصفو بعد الغيم والصحو بعد المطر... وهو لا يذكر ذلك كله ولا يتعرض له إلا فى إطار ذكرياته وبوحى من مشاعره وأحاسيسه وبتأثير عقدة الصراع بين الموت والحياة والأمل واليأس والخوف والرجاء والنشوة واللوعة والبسمة والدمعة، والصحوة والسكرة والحيوية والفتور والشجن والسرور. يقول الزوزنى إن سبب إنشاد هذه القصيدة هو قصة غدير " دارة جلجل" حيث كان امرؤ القيس يحب ابنة عمه "عنيزة" وقد كمن لها وبصحبتها رفيقاتها وهن يسبحن فى الغدير فجمع ملابسهن وانتحى بها ناحية وأقسم ألا يسلمها لهن إلا بعد مرورهن عليه عاريات، وقد كان له ما أراد.. وفى هذا اليوم ذبحن لهن ناقته وقسم متاعه عليهن يحملنه، وركب مع " عنيزة" فى هودجها وظل يداعبها ويشمها ويقبلها وجاشت عواطفه، وتدفقت شاعريته، وجادت قريحته بهذه المعلقة.

إن معلقة امرئ القيس قادرة فى مجموعها على التعبير عن طبيعة العصر الجاهلى وقيمه ومفاهيمه، وعن إحساس الشاعر بما تنطوى عليه الحياة فى عصره من معان ومعايير، وما يتمثل فيها من حدة الصراع بين الإنسان والحياة من حوله فى انقيادها وإبائها، وعطائها ومنعها، وصفوها وكدرها وبشرها وعبوسها... ثم بما تصوره هذه المعلقة من الاعتداد بالذات والثقة

بالنفس والتباهى بالقوة واقتحام المخاطر والولع بالمغامرة والتفرد بالسيطرة والنزوع إلى اللذه والمتاع، والأخذ بأسباب الإرادة الحية القوية فى مغالبة الصعاب وتخطى العقبات وتحدى الطبيعة، هذه الإرادة التى لا تعرف الضعف ولا تستسلم للهزيمة.

ثم إنها فى دورانها حول أغراض متعددة ومعان مختلفة وخواطر متنوعة وجوانب متفاوتة إنما تحتوى ذلك كله فى إطار واحد وقالب متميز من شأنهما أن يحققا وحدة الرؤية والانطباع والتأثير وذلك على سبيل ما يعرف فى عصرنا "بالفيلم التسجيلى" الذى يقدم لك مشاهد متعددة ولقطات مختلفة وجوانب متنوعة وزوايا متفاوتة لتخرج فى النهاية بهذا الانطباع الخاص والتأثر البالغ والانفعال المتميز والإحساس الدقيق بكل ما جادت به قريحة الشاعر وأبدعته شاعريته وإن بدالك منه تعدد فى الأغراض وتنوع فى الاتجاهات وفقدان الإحساس بالارتباط منذ البداية تماما كشعور ذلك الذى يشاهد "فيلما تسجيليا" يدور به حول مواقف متعددة ومشاهد مختلفة لا رابطة بينها فى الظاهر لكنه فى النهاية يؤلف بينها ويجمع شتاتها ويخرج منها بهذا المضمون النهائى الخاص والانطباع الموضوعى المتميز.

وبهذا التوضيح يتبين بطلان الزعم بفقدان معلقة امرئ القيس للنمو العضوى بسبب اعتمادها فى تشبيهاتها على التصور المنظور أو على التقاط صور متتابعة لا يضمها خيط واحد ولا يرتبط بعضها ببعض على ما يقرره بعض الباحثين[1] مستشهدا بهذا الجزء من المعلقة الذى يصف فيه امرؤ القيس الغيث وصفا بارعا تتحقق فيه المهارة والدقة لكنك إذا حاولت التعمق إلى ما وراء هذا الوصف من موقف عاطفى يريد الشاعر أن يخلعه على الظاهرة الطبيعية التى يصورها فلن تستطيع أن تظفر بشئ... هكذا يقول الباحث بينما هو فى مكان آخر يقرر أن لكل أثر فنى وضعه الخاص الذى يحتاج من الناقد أن يتتبعه فى أمانة وفحص دقيق دارسا الصور ومحاولا الكشف عن مدى التوازن الذى يكون بين المتباعدات والمتناقضات فيها، بين المنطقى وغير المنطقى،

(١) محمد زكى العشماوى " قضايا النقد الأدبى والبلاغة ص ١٩٦.

بين الإيحائى منها والتقريرى ثم يسأل الناقد نفسه هل استطاعت مواد القصيدة التى تبدو متنافرة متصارعة للوهلة الأولى أن تحقق درجة التوازن المطلوبة التى أثرتها هذه المواد المتجاذبة المتصارعة[١].

الحقيقة أن معلقة امرئ القيس قادرة بأفكارها ومعانيها ومشاعرها وأحساسيها وألفاظها وعباراتها ودقة أوصافها وتنوع مجالاتها وعذوبة إيقاعها - على التعبير عن روح العصر الجاهلى وطبيعة الحياة الإنسانية فيه بكل ملامحها وسماتها ونبضاتها، وعن هذه الجوانب الذاتية الخاصة وتلمس ما وراءها من أبعاد، وتصوير ذلك كله بفن واقتدار وإدراك واع - بمواطن الإثارة وزوايا الالتقاط الإبداعى الفعال فى مجال البراعة والإبهار.

والحق أن امرأ القيس قد أغنى الشعر العربى بصور بارعة للصحراء وحيوانها ومظاهرها الطبيعية، وأنه قد فلسف الطبيعة وبثها آلامه وتوثقت الروابط بينه وبينها حتى بدت كأنها جزء من نفسه أو صورة لها صيغت على غراره، وقد جمل بيئته حتى خلناها غير جزيرة العرب بصحرائها ونجدها بل عالما آخر جميلا، لكنها العبقرية تلك القوة التى تتناول المألوف فتنفخ فيه من روحها وتخلقه خلقا جديدا[٢].

ولعل هذا ما يفسر قول لبيد حين مر بالكوفة فسئل: من أشعر الناس؟ فقال: الملك الضليل[٣]. وما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه" ذلك رجل مذكور فى الدنيا شريف فيها منسى فى الآخرة خامل فيها يجيئ يوم القيامة معه لواء الشعر إلى النار.[٤] وفى رواية " يتدهدى بهم فى النار" وقد تعليق كل من لبيد وحسان على ذلك ليت هذه المقالة فى وأنا المدهدى فى النار[٥]

(١) محمد زكى العشماوى "المرجع السابق ص ٢٠٢.

(٢) شعر الطبيعة للدكتور سيد نوفل ص ٥٩ ط دار المعارف طبعة ثانية.

(٣) طبقات ابن سلام ص ١٦.

(٤) الأغانى جـ ٨ ص ١٩٩ ط دار الكتب.

(٥) بلوغ الأرب جـ ١ ص ٩٣٣.

وقول عمر بن الخطاب فى الشعراء امرؤ القيس سابقهم، خسف لهم عين الشعر[1] وقول على بن أبى طالب عنه: " إن يكن أحد أفضلهم فالذى لم يقل رغبة ولا رهبة: امرؤ القيس ابن حجر، فإنه كان أصحهم بادرة، وأجودهم نادرة".

ويرى كثير من الباحثين المعاصرين أن امرأ القيس قد أثر فى الشعر العربى تأثيرا كبيرا وأن سلطان هو ميروس فى الأدب اليونانى أو شكسبير فى الأدب الإنجليزى ليس بأعظم من سلطان امرئ القيس فى الأدب العربى[2].

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١٩٩.

(٢) سيد نوفل فى كتابة شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ٥٦.

الفصل الخامس
" الشعراء الصعاليك "

نشأة الصعلكة والصعاليك:

إن البيئة الصحراوية ذات المناخ الحاد والموارد الطبيعية المحدودة التى تعتمد على المطر تجود به السماء فى فترات متباعدة غير منتظمة والتى يسيطر عليها الجفاف والجدب أكثر شهور السنة، هذه البيئة التى تتمثل فيها قسوة الطبيعة ورهبتها ووحشتها وجبروتها وغلظتها تعد عاملا فعالا فى وجود الفقر، فالفقر مكان الشظف والسغب ونكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن التى اختص بها أهل البادية أمور حملتهم عليها الضرورة التى عينت لهم تلك القسمة[1].

وكما كانت هذه البيئة الطبيعية عاملا فى وجود الفقر كانت عاملا فى إحساس الفقراء إحساسا قويا به حين أوجدت فى جوار المناطق المجدبة مناطق خصبة مما أشعر الكثرة من أبناء هذه المناطق بالحرمان إلى جوار حياة الترف والنعيم من حولهم.

وإذا كانت البيئة البدوية قد خلقت هؤلاء الرجال الأقوياء الأشداء من أبناء الصحراء، فإن هؤلاء الأشداء الأقوياء كانوا يرفضون الاعتماد فى حياتهم على الزراعة أو الصناعة ولا يجدون سبيلا للعيش إلا فى الرعى أو التجارة أو الصيد أو النهب والسلب، وإذا كان الرعى مهانة عند بعضهم لأنه من أعمال العبيد الأذلاء فلم يكن هناك مفر من الغزو والإغارة للسلب والنهب، ومن هنا نشأ الصعاليك الذين احترفوا مهنة السلب والنهب، وكانت لهم طرائقهم ومناهجهم فقد ارتدوا أردية الغارات وسفك الدماء ولا شك أن هذه التسمية مستمدة من أسباب أتجاههم الأول إلى ذلك الاحتراف وهو الفقر والعوز والمسغبة أو الشذوذ النفسى والمروق من المجتمع والخروج عليه، ولقد ساعد النظام القبلى العنيف ونظام الرق السخيف وفساد الأحوال وسوء المعاملة على حمل كثير من الشباب

---

(١) مقدمة ابن خلدون الفصل التاسع من الباب الثانى من الكتاب الأول ص ١٢٩.

على أن يحيوا هذه الحياة ويلتحفوا رداء الصعلكة ويعيشوا فى ظلال العبث والفساد وكثير منهم خضع فى اتجاهاته تلك إلى أوضاع قاهرة حزت فى روحه وحطمت كيانه وزلزلت فى نفسه القواعد الاجتماعية العامة.

وقد أنتجت الحالة الاجتماعية فى جزيرة العرب هذه الصعلكة لأن أكثرهم كان من الفقراء ولا يجدون ما يأكلون، وإذا حصلوا على شئ من غارة أو نحوها فشيخ القبيلة هو الذى يأخذ من الغنيمة حصة الأسد، وهم لا يأكلون إلا الفتات ثم نتاج الأرض قليل محدود لا يكفى للعيش أدنى عيشة وأبسط حياة، ولم يكن هناك من سبيل للتحرر من هذا إلا الإغارة على الأغنياء االموسرين لكنهم يتوخون ترك الأغنياء المحسنين تقديرا لهم ومروءة بهم وشهامة من أجلهم، كما يتوخون القسمة بالسوية فيما بينهم دون تفاضل أو تمايز فالكل فى حق الغنيمة سواء.

وقد كثر عدد هؤلاء الصعاليك بسبب أن أفرادا خرجوا على حكم القبيلة لجريرة ارتكبوها أو فعلة أتوها فخلعوا وسموا "الخلعاء" ولم يجدوا أمامهم إلا واحدا من طريقين إما الفرار إلى الصحراء لملاقاة مصير التشرد والضياع بلا نصير يقف بجانبه ولا شئ يعتمد عليه، وإما باللجوء إلى قبيلة يعيش فى جوارها ويطلب حمايتها، ومن هنا يكون له حق الجوار، وحق الجوار من الحقوق المقدسة وكان مما يفخر به العربى أن يكون ملاذا لكل خائف وملجأ لكل طريد وإذا كانت للجار حقوق يمتع بها فإن عليه واجبات يلتزم بها وتنحصر فى احترام الجوار وعدم الإساءة إلى من أجاروه بأى وجه من وجوه الإساءة، ولم تكن حياة هؤلاء الخلعاء طيبة دائما فى حماية من أجاروهم، فقد كانت تتعرض لهزات نتيجة ظروف خاصة يتعرضون فيها للغدر أو الطرد وحسب هؤلاء مذلة وهوانا أن ديتهم كانت نصف دية ابن القبيلة الصريح[1].

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـ ٣ ص ١٩، ص ٢٦.

وإذا تتبعنا أخبار صعاليك العرب وجدنا أن طائفة كبيرة منهم من الخلعاء والشذاذ.. فهذا هو قيس بن الحدادية كان صعلوكا خليعا خلعته قبيلته خزاعة لاشتراكه مع جماعة من أسرته فى قتل أحد أفراد قبيلتهم وعجزهم عن دفع الدية وقد ألف بعد خلعه عصبة من صعاليك العرب جمع فيها شذاذا من العرب وفتاكا من قومه[1] وخاض بهم غمار شدائد وأهوال حتى قتل وهو خليع قتلة كان فيها شجاعا حتى النهاية.

وأبوا الطمحان القينى يعد مع الخلعاء الشذاذ والأخبار عنه كلها تتواتر على فسقه وفجوره ولهوه واستهتاره[2].

وقد قضى حياة قلقة مضطربة متنقلا بين الأحياء مستجيرا بها لا يكاد يستقر فى جوار وقد قضى عليه أن يموت بعيدا عن أهله رغم شدة حنينه وشوقه إليهم. وكما قلت فإن الرق والرقيق كان عاملا هاما فى نشأة الصعلكة وقد كانت طبقة العبيد تتألف من عنصرين: عنصر عربى وهم الأسرى الذين كانوا يقعون فى أيدى القبيلة فى حروبها مع القبائل الأخرى، وعنصر غير عربى وهم الرقيق الذين كانوا يجلبون من المناطق المجاورة، فقد كان تجار الرقيق يحملون العبيد والإماء من هذه البلاد إلى جزيرة العرب يبيعونهم فى أسواقها[3]وليس من شك فى أن حياة العبيد كانت سلسلة من الذلة والمهانة والضياع والضعة، ولم يكن يعهد إليهم من الأعمال إلا تلك التى يأنف السادة من القيام بها وقد يحدث أن يتزوج العربى من أمته وهو زواج غير متكافئ، وقد أطلق العرب على الأبناء من هذا الزواج "الهجناء" والهجين من العرب الذى أبوه شريف وأمه وضيعة والأصل فى ذلك أن تكون أمة[4]. وكان أسوا هؤلاء الهجناء حظا وأوضعهم منزلة أولاد الإماء السود الذى سرى السواد إليهم من أمهاتهم فقد كانوا سبة يعير بهم الآباء بسبب اللون وقد أطلق العرب اسما خاصا على هؤلاء السود تمييزا لهم من إخوانهم الهجناء فسموهم "الأغربة".

---

(١) الأغانى ١٣ ص ١.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٢٩. الأغانى جـ ١١ / ١٣٠ ١٣٢.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامى - جورجى زيدان ٤/ - ٢.

(٤) الكامل للمبرد ص ٣٠٢.

وجاء فى لسان العرب "أغربة العرب" سودانهم شبهوا بالأغربة فى لونهم ويقول أبو عبيدة "إنما سموا أغربة لأن أمهاتهم كن سودا" ويواجه هؤلاء الأغربة حياة تعسة مهينة غير معترف بهم حتى من آبائهم ولا يمارسون إلا أحط الأعمال وأهونها شأنا. ومن هؤلاء الأغربة من خرجوا على هذه الأوضاع المهينة وشقوا العصا ورفعوا راية العصيان معتمدين على قواهم الذاتية، ومن هؤلاء الأغربة المتمردين تألفت جماعة من الصعاليك العرب.

ونذكر من بين الشعراء الصعاليك من هؤلاء الأغربة: السليك بن السلكة، ويقول عنه ابن قتيبة أنه أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم[1]ويقول عنه المبرد إنه "كان من غربان العرب"[2].

ومنهم تأبط شرا: الذى يضعه ابن الأعرابى فى نوادره بين أغربة الجاهلية[3].

وقد انضمت هذه الطائفة من الصعاليك الأغربة إلى الطائفة السابقة من الصعاليك الخلعاء والشذاذ فى عصبية مذهبية قوامها الغزو والإغارة للسلب والنهب بعيدة كل البعد عن العصبية القبلية معتمدة كل الاعتماد على الشجاعة والقوة والبطولة والإقدام مما هيأهم لأن يقوموا بدور خطير مع بعض الملوك والأشراف ضد أعدائهم يشبه تماما دور الجنود المرتزقة عند الأمم الأخرى[4].

ويمكننا القول بأن إيمان القبيلة بوحدتها فى المجتمع الجاهلى أسهم فى إيجاد طبقة الخلعاء والشذاذ وأن إيمانها بجنسها أوجد طائفة "الأغربة" وأن المتمردين من هاتين الطائفتين من شتى القبائل قد اجتمعوا فى عصابات من

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢١٤.

(٢) الكامل المبرد ص ٢٩٨.

(٣) المزهر للسيوطى جـ ٢ ص ٢٦٩.

(٤) الشعراء الصعاليك: يوسف خليف. ص ١١٦.

صعاليك العرب تؤمن بعصبية سلوكية قوامها الغزو والإغارة للسلب والنهب ولا تعتقد بعصبية قبلية وهم يعتمدون كل الاعتماد على قوتهم الذاتية وقدرتهم البالغة، وشجاعتهم النادرة شأنهم فى ذلك شأن المجتمع الذى يعيشون فيه والذى كان يؤمن بالقوة إيمانا جعلها من مقومات حياته مع فارق واضح وهو أن عمل القبائل جماعى منظم، وعمل الصعاليك فردى لا نظام له، معترف به[1].

وقد انتشر صعاليك العرب فى البادية يقطعون طرقها، وينهبون ويسلبون، ويثيرون فى أرجائها الرعب والفزع، ويغيرون على المناطق الخصبة ويهددون أهلها فى ثروتهم وحياتهم ويعترضون القوافل التجارية حتى لتضطر إلى أن تخرج مسلحة فى حرس شديد أو تحتاج إلى من يجيزها على المناطق الخطرة[2].

وهكذا اتخذ صعاليك العرب فى مناطق الخصب فى الجزيرة العربية أهدافا لهم يتجهون إليها، ومناطق نشاط يعملون فيها.

وهذا هو شاعرهم "تأبط شرا" يكشف أن أهدافه هى تلك المزارع الخصبة حيث الماء والزرع والماشية:

فيوما على أهل المواشى وتارة ∴ لأهل ركيب ذى ثميل وسنبل

وهذا هو السليك بن السلكة يخرج فى بعض غزواته يتتبع الأرياف، قاصدا مواطن الخصب والازدهار فيها ممنيا نفسه ومن معه بغنيمة. ولقد تعرضت مناطق الخصب فى الجزيرة العربية بدون استثناء لغارات الصعاليك... ومنها: اليمن ونجد ويثرب والوديان المحيطة بها وبعض مناطق السراة.

وقد يتوزع الصعاليك هذه المناطق فيها بينهم ويختص كل منهم بمنطقة لا يجوز الاعتداء عليها.. تماما كما يفعل "الفتوات" و"البلطجية" فى عصرنا الحاضر.. أو كما يفعل المستعمرون.. بلطجية العصر الحديث وصعاليكه وفتواته فى تقسيم مناطق النفوذ وتوزيعها فيما بينهم.

---

(١) تاريخ الشعر السياسى لأحمد الشايب ص ٣٥.

(٢) الشعراء الصعاليك: يوسف خليف ص ٧٤.

وقد تواردت الأخبار بكثرة عدد الخلعاء والشذاذ والذؤبان فى شتى القبائل فى "مكة" واتخاذهم منها مركزا يلتقون فيه آمنين على حياتهم[1] حتى إذا ما احتاج إليهم ثائر لغزوة من الغزوات قدم إليهم فيها وواعدهم فى الحرم ثم خرج بهم جنودا مرتزقة[2].

ورغم كل الاحتياطات الضخمة. ووسائل التأمين المختلفة وأساليب الحماية المتعددة للقوافل التجارية المتنقلة فى ربوع الصحراء وفى شتى المناطق فقد تعرضت هذه القوافل بغير استثناء لحركات معادية من جانب طوائف الصعاليك والخلعاء والشذاذ والأغربة والذؤبان بغية النهب والسلب واقتناص رزق ساقه الله إليهم فيما يعتقدون فينهبون ما يقدرون على انتهابه ليتقاسموه فيما بينهم، ويشركوا معهم أحيانا أولئك الصعاليك الضعاف والمرضى والمسنين ممن حالت ظروفهم الخاصة دون المشاركة فى الغزو والغارة وهم فى ذلك يؤمنون كل الإيمان بأن هذا الاغتصاب حق لا يبغون من ورائه سوى العيش فى مجتمع انحرفت فيه موازين العدالة، واختل التوازن الاقتصادى.

فالتفرقة بين البشر فى الجنس واللون والحسب والنسب والقبيلة وما إلى ذلك تؤدى إلى هذه النظرة القاصرة العشواء والتعامل مع الناس على أساسها مما يؤدى إلى الانحراف عن الحق والعدل والخير.

وهنا نذكر قول الحق تبارك وتعالى "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" وقول الرسول الكريم: أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب.. لافضل لعربى على عجمى ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى.. " وكذلك اختلال التوازن الاقتصادى مع إهمال مبدأ التكافل الاجتماعى القائم على بذل الأموال وتقديم العون للمحتاجين يؤدى بدوره إلى الإحساس بالضياع والشعور بالظلم والتشبع بالحقد والكراهية والبغضاء وهذه كلها عوامل تخريب

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٩٨ ومعجم البلدان لياقوت جـ ٨ ص ١٣٦.

(٢) الشعراء الصعاليك ص ١١٦.

وتدمير للمجتمع... وهنا أيضا نذكر ما جاءت به شريعة الإسلام من الأمر بأداء الزكاة والحث على الإنفاق وبذل الأموال وتقديم العون لكل من هو فى حاجة إلى العون والمساعدة.

شعر الصعاليك: موضوعه وخصائصه:

العرب أمة شاعرة تهدر بالشعر طبائعهم وتشدو به ملكتهم إذا حلوا أو ارتحلوا فى ظعنهم وإقامتهم عند الخوف والطمأنينة فى الحرب والسلام[1].

ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حاجته[2] وحقيقة أن الشعر قد تهذب وترقى وتطور فى زمن لا نعرفه ولا يمكن أن نهتدى إليه لأن العرب لم تساعدهم كتابة ولم يسعفهم تدوين.

وما حاق بالأمم السابقة من أحداث جسام قد عفى الآثار وأسدل على آدابها وأشعارها ستائر النسيان والزوال.

ومن المقرر المعروف أنه لم يصل إلينا من شعر العرب الأقدمين وآدابهم إلا القليل، وإن من يستعرض الشعر الجاهلى الذى انتهى إلينا وسلم من الضياع لتروعه كثرته وكثرة شعرائه، فما بالنا لو انتهى إلينا كله؟!.

وبحسب الدارس أن ينظر فى الأغانى والأمالى والحماسة والكامل والمفضليات والأصمعيات وطبقات الشعراء والعمدة وزهر الآداب وغيرها من الكتب ليرى ما تروعه رؤيته وتزيد من شوقه ولهفته.. وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن العرب أقوى الأمم شاعرية وأشعر الأمم السامية وأن الشعر أصيل فيهم يقولونه بالفطرة والسليقة ويصدرون فيه عن طبع سمح ونفس فياضه وروح صافية وعواطف ملتهبة ومشاعر متألقة.

---

(١) الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام: حسن جاد، عبد الحميد المسلوت، محمد عبد المنعم خفاجى ص ١٢٢.

(٢) ابن سلام الجمحى طبقات الشعراء ص ١٧.

ولقد كان الشعر فى الجاهلية ديوانا للعرب أو دعوه وقائعهم ومفاخرهم وأحسابهم وأنسابهم وأيامهم وذكرياتهم وخواطرهم وخلجات نفوسهم وأوصاف بيئتهم..

وكان للشعر سحره وروعته وتأثيره فى النفوس كما كان للشعراء مكانتهم ومنزلتهم وأقدارهم.. ولا تزال مصادر الأدب والشعر الجاهلى صورة ناطقة ببلاغتهم وسحرهم وشدة تأثيرهم وجلالة أثرهم فى حياة العرب. والصعاليك باعتبارهم طائفة خاصة فى البيئة الجاهلية لها حياتها ولها عالمها لهم أدب خاص ولهم شعر يعبر عن مشاعرهم وميولهم وأحاسيسهم ويصف أحوالهم وأخلاقهم ويصور الأحداث التى تمر بهم والعوارض التى تنتابهم والظروف الصعبة التى تصادفهم.

ونحن إذا أمعنا النظر فيما وصل إلينا من شعر الصعاليك أمكننا أن نلحظ قلته وكثرة الاضطراب فى رواية نصوصه والشك الذى يحيط ببعض هذه النصوص.

فمن حيث القلة فإن مردها إلى ضياع جزء كبير من أشعارهم كما هو الشأن فى الشعر الجاهلى عموما..

يقول أبو عمرو بن العلاء:
"ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله،ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير.."[1].

أضف إلى ذلك أن نتاجهم إنما هو نتاج طائفةمن الشعراء متمردة على قبائلها متشردة فى مجاهل الصحراء فليس من شك إذن فى أن كثيرا من الشعراء الصعاليك كان لهم شعر كثير، وأن هذا الشعر قد ضاع أكثره..

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٠ والمزهر للسيوطى جـ ٢ ص ٩٤.

أورد المزربانى عن قيس بن الحدادية..أنه شاعر قديم كثير الشعر[1]. ومع ذلك فما انتهى إلينا من شعر قيس بالذى يمكن أن يطلق عليه أنه شعر كثير..

أما ظاهرة الاضطراب فى رواية نصوص أشعار الصعاليك فهى ظاهرة تلحظ فى كل نصوص الشعر الجاهلى ولكنها تلحظ بصورة قوية فى نصوص شعر الصعاليك نظرا للظروف الخاصة التى كانت تحيط بهم. والملاحظ أن هذا الاضطراب شمل ألفاظ الشعر وترتيب أبياته وعدد هذه الأبيات.

أما بالنسبة للشك الذى يحيط ببعض نصوص هذا الشعر فإنه أمر فى الحقيقة خطير لأنه يتصل بالمادة التى ندرسها أهى حقا لأصحابها من الشعراء الصعاليك، أم هى مختلقة مدسوسة عليهم؟؟

وشعر الصعاليك ليس بالشعر الفريد الذى اكتنفه الشك فالشعر الجاهلى عموما قد لحقته هذه التهمة: تهمة الانتحال والتنزييف.

وعلى كل فإن هذا الشك قد اتخذ اتجاهين.

اتجاها انحصر فيه الشك فى نسبة الشعر إلى أى من الشعراء الصعاليك، ومعنى ذلك أن الاتفاق منعقد على أنه من شعر الصعاليك ومن أمثلة ذلك البائية التى تنسب مرة لأبى خراش الهذلى ومرة للأعلم الهذلى ومرة لتأبط شرا وكلهم من الصعاليك.

واتجاها آخر تعدى فيه الشك نطاق الشعراء الصعاليك وتجاوزهم إلى غيرهم بمعنى أن الشك يدور حول نسبة الشعر إلى الشعراء الصعاليك أو غيرهم من الشعراء كتلك الأبيات التى تنسب مرة إلى "تأبط شرا" ومرة ثانية إلى "البعيث" ومرة ثالثة إلى هدبة العذرى "وقد تناول شعر الصعاليك موضوعات شتى تتعلق بصنعة الصعلكة والظروف المحيطة بها والمبادئ التى يعتنقونها

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٢٦.

والاتجاهات الخاصة المسيطرة عليهم ولذا كان من الطبيعى أن يتناول الصعاليك فى أشعارهم: الأحداث التى مرت بهم والغارات التى قاموا بها والمغامرات التى احترفوها كما تحدثوا عن ترصدهم وإحاطتهم بضحاياهم ومراقبتهم لهم، وأفاضوا فى تهديدهم ووعيدهم والتلويح بما لهم من قوة وبأس وصبر وجلد وسلاح وعتاد وحديث عن الرفاق بما فيه من مصطلحات وإشارات ورموز وكما يتناول الشعراء الصعاليك فى أشعارهم أحداث الكر والإقدام يتناولون أيضا أحداث المخاتلة والفرار والهروب وسرعة العدو وبراعة المروق وحيوية الحركة.

وللشعراء الصعاليك أحاديثهم عن الخيول والجياد وأسمائها وصفاتها واحتقار سرعتها بجانب عدوهم، وعن حبهم للوحوش فى فلواتها وحنينهم إليها، وكان لابد أن يظهر فى الشعر الصعلوكى حديث التشرد والضياع والفقر والأسى والألم والحيرة الإضطراب ومظاهر القلق والتحدى، بعد ذلك كله كانت تطالعنا بوضوح فى أشعارهم خلاصة آرائهم فى الحياة والمجتمع والتحرر من كل القيود والتعبير عن وجهات نظرهم فيما هم فيه وفيما يعنيهم من دنيا الناس والكشف عن المآسى والعقد التى تنطوى عليها نفوسهم وتكنها جوانحهم وتخفيها صدورهم.

وفيما عدا ذلك فقد كان للشعراء الصعاليك نفس الأغراض والموضوعات التى كان يتناولها الشعراء الجاهليون باعتبارهم طائفة تحيا فى بيئة جاهلية يخضع أفرادها لنفس الظروف وتسيطر عليهم نفس المشاعر وتوجههم نفس الاتجاهات: وعموما فإن شعر الصعاليك كثير: بعضه فى أشخاصهم وبؤسهم وبعضه فى إنسانيتهم وربما كان بنوعيه يصور لنا جانبا كبيرا من جوانب الحياة العربية[1].

(١) الصعلكة والفتوة فى الإسلام: أحمد أمين ص ٤٣.

وأول ما يلفت النظر فى شعر الصعاليك[1] أنه شعر مقطوعات بمعنى أن المقطوعة تذيع فيه أكثر من ذيوع القصيدة، وهذه سمه تتفق مع طريقة خطفهم فهم يخطفون فى حروبهم، ويخطفون فى شعرهم، ولذلك فإننا نرى أنفسنا أمام مجموعة كبيرة من المقطوعات تبتدىء بالبيتين وقد تنتهى إلى العشرين بيتا. ولا تفسير لذلك إلا مع افتراض النقص والضياع بمعنى أن القصائد لم ترو كاملة فى عدد أبياتها، وإما أن نقبل حقيقة أن شعرهم فى أغلبه مقطوعات قصيرة من وحى الحياة القلقة المشغولة بالكفاح فى سبيل العيش ومن أجل البقاء.

ومن الخصائص الفنية لشعر الصعاليك الوحدة الموضوعية فإن المتأمل فى الشعر الصعلوكى يراه وقد اتسم بوحدة الموضوع بحيث يمكننا أن نضع لكل مقطوعة أو قصيدة عنوانا خاصا ينبئ عن الوحدة الموضوعية ووحدة التجربة النفسية، وحتى القصائد الطويلة فإننا نستطيع أن نرجعها إلى أصل موضوعى واحد تتفرع منه فروع شتى كما تتفرع أغصان الشجرة من جذعها وذلك كما ترى فى لامية ذى الكلب الهذلى ورائية عروة بن الورد التى يتحدث فيها عن مذهبه فى الغزو ودوافعه، وعن الصعلوك الخامل والصعلوك العامل وميمية أبى خراش التى يتحدث فيها إلى امرأته عن فقرة، وكرم نفسه وشجاعته.

ومع ذلك فإن لبعضهم القصائد التى لا تخضع للوحدة الموضوعية تمشيا مع الشعر التقليدى فى العصر الجاهلى.

ولقد تحرر الشعراء الصعاليك من افتتاحيات النسيب والوقوف على الأطلال وبكاء الديار وذلك يعتبر تمشيا مع الوحدة الموضوعية التى يتسم بها شعرهم، وبدلا من البكاء والعويل نرى وقفة قوية واثقة فى حديث موجه إلى المرأة المحبة الحريصة على حياة حبيبها الصعلوك لكن صعلوكها المحبوب يأبى إلا أن يكون بطلا قويا مستهينا بحياته فى سبيل أهدافه وغاياته. لنستمع إلى "السليك بن السلكة" يقول:

---

(١) انظر هذه الخصائص فى الشعراء الصعاليك الباب الثانى الفصل الثالث وانظر شعر الصعاليك لعبد الحليم حفنى.

تحذرنـى أن أحـذر العـام خثعمـا ∴ وقد علمت أنـى امرؤ غير مسلم

وهذا عمرو بن براقة يستهل قصيدته الميمية بقوله:

تقـول سـليمى لا تعـرض لتلفـة ∴ وليلـك عـن ليـل الصعـاليك نـائم
وكيف ينـام الليـل مـن جـل مالـه ∴ حسام كلون الملح أبيـض صـارم
غموض إذا عض الكريهة لم يدع ∴ لـه طمعـا طـوع اليميـن مـلازم
ألـم تعلمـى أن الصعـاليك نومهـم ∴ قليـل إذا نـام الخلـى المسـالم[1].

وعروة بن الورد يعد خير من يمثل هذه الظاهرة:

ذرينـى ونفـس أم حسـان إننـى ∴ بهـا قبـل أن لا أملـك البيـع مشـترى
أحـاديث تبقـى والفتـى غـير خـالد ∴ إذا هـو أمسـى هامـة فـوق صـير
تجـاوب أحجـار الكنـاس وتشـتكى ∴ إلـى كـل معـروف تـراه ومنكـر

ويقول أيضا:

ألـم تعلمـى يـا أم حسـان أننـا ∴ خليطا زيال ليس عـن ذاك مقصـر
وأن المنـا تعـز كـل منيـة ∴ فهل ذاك عما يبتغى القـوم محصـر

وفى هذا الصدد يقول أحمد أمين[2].

وقد نلاحظ أنهـم يتجـافون عـن الحـب وقـل أن نجـده فـى شـعرهم إنمـا نجـد فـى شعرهم مخاطبة زوجاتهم بعدم العتب عليهم فى سيرتهم، وربما كـان سـبب ذلـك أن الحب يبنى على أساسين: حياة مترفة بعض الترف ليست كحياة الصعلكة مـن بؤس وفقر لأن الحب كالزهرة على المائدة لا ينتفع بها إلا بعد القوت والثانى أن الحب يحتاج فى أول تكوينه إلى استقرار والصعاليك أبعد الناس عن الاستقرار.

وتعتبر الواقعيـة مـن الملامـح المميـزة للشـعر الصعلوكـى فالشـعراء الصعاليك يتخذون من الحيـاة بمـا فيهـا مـن خـير وشـر مـادة لموضوعـاتهم مـع الابتعاد عن الإمعان فى الخيال إمعانا يخرج بهم عن حدود الواقـع فهـم يلـتزمون

(١) الأمالى: القالى جـ ٢ ص ١٢٢، الأغانى: الأصفهانى جـ ٢١ ص ١٣٣.
(٢) الصعلكة والفتوة فى الإسلام ص ٤٣.

بالبيئة البدوية التى تقع تحت أبصارهم وأسماعهم وحواسهم وصفا لها وتجلية لمظاهرها وكشفا لما يحيط بها، واستيعابا لكل ما ظهر فيها ونشأ عليها وما توارد وتتابع على أرضها من أحداث.

وهم فى وصفهم للبيئة يعتمدون على الصدق، ومطابقة الوصف للواقع كما يعتمدون على استكمال جوانب الصورة باستيعاب عناصرها وجزئياتها مع الالتزام بالدقة فى التعبير والصراحة فى التصوير مما ينبئ عن خبرة ودارية واكتمال معرفة.

ومن السمات المميزة للشعر الصعلوكى السرعة الفنية بما فيها من حيوية وتدفق وتتابع ايقاع وسلاسة نبض حتى لكأن المقطوعة الشعرية أشبه ما تكون بشوط من أشواط عدوهم السريع(١).

ومن مظاهر هذه السرعة الفنية انتشار المقطوعة والقصائد القصيرة وتخلصهم من مقدمات النسيب ومن الالتزام بالتصريع فى مطالع القصائد الفنية خروجا على التقليد المعروف فى الشعر الجاهلى..

كذلك من مظاهر هذه السرعة قلة الصنعة الفنية فى شعرهم فليس من طبيعة الشاعر الصعلوك التأنى والروية والتمهل فى استكمال مقومات عمله الفنى، فلم يكن الشعر عنده حرفة تقصد لذاتها، ويتفرغ صاحبها لتجويدها والوصول بها إلى الغاية المثلى، وإنما يأتى كل شئ هكذا من وحى الفطرة والطبيعة كما هى، وبكل ما فيها، وما عليها، وما أحاط بها بلا تصنع ولا تكلف ولا تزويق.

وهذه النزعة الفنية هى فى جوهرها استجابة طيعة للطبيعة المواتية والشاعرية السمحة المتدفقة والطبع الأتى الجياش الممعن فى فيضه وجيشانه بتأثير لوعة المعاناة ودفق المشاعر وحدة الإحساس وتوتر الوجدان.

---

(١) الشعراء الصعاليك ص ٢٨٩.

والطبيعة المواتية سمة أصيلة من سمات الشاعرية الجاهلية الموهوبة بلا جدال.. وقد ارتبطت هذه السمة لدى الشعراء الصعاليك بحدة العاطفة وثورة النفس وعناء القلق والتحفز للوثوب على الأغراض والمقاصد بجرأة بالغة وإرادة قوية وهمة جسور وعزيمة لا يعتريها فتور ولذلك كانت هذه السرعة عندهم شكلا فنيا متميزا ونمطا إبداعيا بارزا ومذهبا تلتقى فيه شاعريتهم بأدق سماتها وأوفى ملامحها.

وفيما يتعلق بالخصائص اللغوية للشعر الصعلوكى فإن ما نلحظه على لغتهم أنها لغة العصر الجاهلى بما لها من خصائص وما تمتاز به من سمات، وغاية ما فى الأمر أن لغة الشعراء الصعاليك أقرب إلى الفطرة وأصدق تمثيل للغة العربية فى بيئاتها ومنابعها الأصيلة بما تحويه من مادة لغوية ذاخرة كما أن لغتهم أكثر احتواء على الغريب الشاق المحوج للرجوع إلى المعاجم المطولة احتماء من هذه الحوشية البدوية فى شواردها وأوابدها لنستمع إلى شاعرهم "تأبط شرا" يقول:

وحثحثت مشعوب النجاء كأننى ∴ هجف رأى قصرا سمالا وداجنا
من الحص هذروف كأن عفاءه ∴ إذا استدرج الفيفا ومد المغابنا
أزج زلوج هذرفى زفازف ∴ هزف يبذ الناجيات الصوافنا[1].

ولنتأمل قول الأعلم!

فشايع وسط ذودك مستقنا ∴ لتحسب سيدا ضبعا تنول
عشنزرة جواعرها ثمان ∴ فويق زماعها خدم حجول
نزاها الضبع أعظمهن رأسا ∴ جُراهمة لها حِرَة وثيل[2].

---

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٢١٣. حثحثت: حركت بسرعة الحص جمع أحص وهو قليل شعر الرأس – هزروف: الطليم السريع الخفيف المغابن جمع مغبن وهو الإبط – أزج: بعيد الخطو لزوج: ناج من الغمرات هذر فى من الهذرفة وهى السرعة زفازف من الزفزفة وهو بسط الطائر جناحية أو رميه بنفسه هزف: سريع – الناجيات الصوافن: الخيل السريعة.

(٢) شرح أشعار الهذليين جـ ص ٦٣ وما بعدها.

ولنصغ إلى أبى الطمحان فى قوله:

فأصحبن قد أقهين عنى كما أبت ∴ حياض الإمدان الهجان القوامحُ

وباستقراء أشعار الصعاليك وتتبعها نرى أن الأوزان التى صاغ فيها الشعراء الصعاليك شعرهم هى نفس الأوزان التى عرفت عند سائر الجاهليين مع التزامهم الغالب "بالقبض" فى بحر الطويل، وإسقاط أول الوتد المجموع من "فعولن" وتحويله إلى "فعلن"، وهذه أمور شائعة فى الشعر الجاهلى.

كما يمكننا أن نرى بوضوح انتشار الرجز فى الساعات الحرجة وقبل المصارع نظرا لسهولة هذا الوزن وتوافقه مع حركات القتال.

ومما تجدر الإشارة إليه فى مجال الخصائص الفنية للشعر الصعلوكى ظاهرة التحلل من الشخصية القبلية وظهور الوضوح الفنى لشخصية الشاعر الصعلوك الأمر الذى جعل من أشعار الصعاليك ظاهرة فنية مميزة بين الشعر الجاهلى[1].

كذلك مما نشير إليه فى هذا المجال بروز عنصر الحكاية والنزعة القصصية فى أشعار الصعاليك، فلقد كانت حياتهم الحافلة بالأحداث المثيرة مادة خصبة لشعرهم الذى أخذوا يسجلون فيه أحداث هذه الحياة وقصص هذه المغامرات حتى ليمكننا القول بأن كل مقطوعة جديرة بأن توضع تحت عنوان قصصى مثير، حيث تتجلى فيها غرابة الحدث وإثارته. وبراعة التحليل النفسى ودقته، وجودة التصوير وروعته، وقوة التعبير وسلاسته، وما بائية الأعلم الهذلى التى يقول فيها:

لما رأيت القوم بالـ ∴ عياء دون قدى المناصب
وفَريت من فزع فلا ∴ أرمى ولا ودّعتُ صاحبْ

= والعشنزرة الغليظة المسنة والزماع جمع زمعة وهى شعرات خلف ظلف الشاة والخدم جميع خدمة وهى لون يخالف سائرلون رجلها مثل الخلخال.

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى لأحمد محمد الحوفى ص ٢٣٤.

إلا قصة نفسية تحليلية دقيقة لشخصية الهارب المذعور والمطارد الطامع فى إدراكه، والخوف من الموت، والحرص على الحياة[1].

وجملة القول فقد كان الصعاليك فى أشعارهم خير مثال لتصوير حياتهم فى بساطة وحماس وإخلاص والتعبير عن آرائهم واتجاهاتهم ومبادئهم بلا غموض أو التواء فى صراحة دونها أى صراحة. ووضوح يسمو فوق كل وضوح.

ومن هنا كان شعر الصعاليك مميزا بخصائصه فريدا بملامحه، أصيلا بمقوماته، رائعا بفصاحته وبلاغته، غنيا بموضوعه ومادته.

وقد أجاد الشعراء الصعاليك وبرعوا فى عرض مشاعرهم وأحاسيسهم واستطاعوا حقيقة أن يسلطوا الأضواء على لون من الشعر الجاهلى له خصائصه الفنية الذاتية وملامحه المميزة... ونذكر من هؤلاء الشعراء عروة بن الورد – وتأبط شرا – والشَنْفَرَى والسليك بن السلكة – وقيس بن الحدادية، وأبو الطمحان القينى – وأبو خراش الهذلى – وصخر وعمرو بن براقة الهمدانى، وعمر ذو الكلب – وحاجر والأعلم الهذلى والأحيمر السعدى – وفضالة بن شريك..

ومن أشهر أعمالهم الأدبية: لامية العرب "أو قصيدة الصحراء التى تقابل فى العرف الأدبى لامية العجم "التى أنشأها" الطغرائى" ت ٥١٥ هـ ومطلعها:

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل ∴ وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

ولقد جادت عبقرية " الشنفرى" الأزدى بهذه القصيدة اللامية الخالدة التى نستروح من خلال أبياتها نسائم الحرية والانطلاقة النفسية، ونصغى لأنغامها فتأسرنا موسيقى الصحراء وحداء البوادى وقد برع "الشنفرى" وأجاد فى تصوير حياة الصعاليك العرب وكان بحق صادقا غاية الصدق دقيقا كل الدقة.

---

(١) شرح أشعار الهذليين – السكرى جـ ١ ص ٥٥ – ص ٦٠ بائية الأعلم. القدى: القدر – المناصب: الرامى الذى يناصبك الرمى.

قد استغنى عن النسيب، وجاء بالحكمة، وتغنى بالبطولة وصور مرارة الجوع ولوعة العطش ووصف الحيوان والطير بما لم يسمع بمثله. وأفاض فى ذكر مغامراته فى عرض قصصى مثير ووصف قوسه وعدوه وسرعة جريه فكان وصافا بارعا ومصورا متميزا وفى مطلع لاميته يطلق سهام ثورته وغضبته على قومه لأنهم لم يكونوا فى نظره منصفين عادلين. يقول الشنفرى:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم ∴ فإنى إلى قوم سواكم لأميل
ولى دونكم أهلون سيد عملس ∴ وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الأهل لا مستودع السر ذائع ∴ لديهم ولا الجانى بماجر يخذل[1].

(١) فى قوله "أقيموا بنى أمى.." تعبير صريح عن إعراضه عن قومه وانصراف قلبه إلى قوم سواهم – السيد: الأسد بلغة هذيل والذئب عند غيرهم العملس: القوى على السير السريع – الأرقط الزهلول: النمر المخطط الجلد – العرفاء الضبع جيأل: اسم معرفة لها.

الفصل السادس
" الشعراء الحنفاء "

الرأى عند العلماء الإسلاميين أن العرب كلهم كانوا على دين إبراهيم وإسماعيل[١] أى التوحيد ثم ابتعدوا عنه فعبدوا الأوثان والأصنام، ومع ذلك بقيت منهم بقية تعبد الله وتحافظ على دين أبيها إبراهيم وابنه إسماعيل ولقد فهم العرب هذا المعنى الدينى فوجدنا منهم من يقول عن عقيدته الدينية.. نحن حنفاء على دين إبراهيم." وكان ذلك قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقول السيوطى: حنيفا أى موحداً وإنما سمى إبراهيم حنيفا لأنه كان حنف عما كان يعبد أبوه وقومه من الآلهة إلى عبادة الله أى عدل عن ذلك ومال[٢].

ويقول الإمام الشوكانى فى الآية الكريمة " واتبع ملة إبراهيم حنيفا" أى خلص نفسه له حال كونه محسنا أى عاملا للحسنات واتبع ملة إبراهيم أى دينه، حنيفا أى مائلا عن الأديان الباطلة إلى دين الحق وهو الإسلام[٣] ويقول البغدادى.. الحنيف هو المسلم وله معان أخر: المختون والناسك والمستقيم الطريقة والمائل إلى الدين المستقيم[٤].

وهناك اتفاق بين العلماء العرب وأهل الأخبار على أن معنى الحنيف فى مفهوم العرب الجاهليين هو الإنسان الذى نبذ عبادة الأصنام والأوثان وسائر العبادات واتبع ملة إبراهيم وسنته وآمن بعقيدة التوحيد[٥].

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٢١٠ ط الأزهرية ١٩٥٠.

(٢) معترك الأقران فى اعجاز القرآن جـ ٢ ص ٦٣ ط الحلبى بمصر ١٩٧٧.

(٣) فتح القدير للشوكانى فى جـ ١ ص ٥١٩.

(٤) خزانة الأدب جـ ١ ص ١٢٣ ط ١ بيروت.

(٥) الملل والنحل جـ ١ ص ٢١٠.

ويقول "نولدكه" عن كلمة "تحنيف" إنها من الكلمات التى لها معان دينية وهى من أصل عربى، ويرى بعض المستشرقين أنها من أصل آرامى.

وأنها كانت معروفة عند النصارى وأخذها الجاهليون منهم وأطلقت على القائلين بالتوحيد من العرب(١).

ويقول "فلهوزن" إنها سمة لجماعة من الزهاد النصارى عرفوا بشدة تقواهم وترهبهم فعرفوا لذلك بها وإن هذه الكلمة لها صلة بظهورها عند العرب(٢). ولـ"فلهوزن" وأمثاله أن يقولوا ما يشاءون لكننا بعد الدراسة والبحث نستطيع أن نقرر أن الحنفاء هم الذين ينتمون إلى الملة الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام ومالوا عن عبادة الأصنام والأوثان وتمسكوا بالفضائل والمثل وترفعوا عن الدنايا والخطايا ولم يكونوا مع ذلك من اليهود أو النصارى إذ أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين شاكرا لأنعم الله وقد اجتباه واصطفاه وجعله من الصالحين.

وإذا كان هناك من العلماء من يطلق على الحنفاء: الصابئة فذلك لخروجهم عن دين أقوامهم واتباعهم ملة خاصة ومن ذلك ما يذكره الألوسى من أن الصابئة كانوا قسمين صابئة حنفاء وصابئة مشركين وأن الحنفاء منهم هم قوم إبراهيم الخليل وأهل دعوته(٣).

ومن الحنفاء الذين أشارت إليهم المصادر المختلفة:
قس بن ساعدة الإيادى، أمية بن أبى الصلت، أرباب بن رئاب سويد بن عامر المصطلقى وكيع بن سلمة بن زهير الإيادى، عمير بن جندب الجهنى، أبو قيس صرمة بن أبى أنس، عامر بن الظرب العدوانى، علاف بن شهاب التميمى، المتلمس بن أمية الكنانى، زهير بن أبى سلمى، خالد بن سنان بن غيث العبسى، عبد الله القضاعى، كعب بن لؤى بن غالب سيف بن ذى يزن، أسعد بن كرب،

(١) انظر الشعراء الحنفاء لأحمد جمال العمرى ص ٨٠ ط دار المعارف الأولى ١٩٨١.
(٢) نفسه.
(٣) بلوغ الأرب جـ ٢ ص ٢٣٣ الألوسى ط ١ القاهرة ١٩٢٤.

عبد الطابخة بن ثعلب، زيد الفوارس بن حصن عبد المطلب بن هاشم وأخرون[1] وزيد بن عمرو بن نفيل كان يمثل بحق السمات الحقيقية فقد اعتزل عبادة الأوثان وامتنع عن الذبح لها أو أكل ما ذبح لها وكان يحج البيت ويوجد فى تلبيه ويتجه إلى الكعبة فى صلاته وكان يعيب على قومه تصرفاتهم وشركهم. وكان يقول "يا معشر قريش أيرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فيه وتذبحوها لغيره؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض أحدا على دين إبراهيم غيرى....[2] ويذكر ابن سعد فى طبقاته أنه كان يحيى الموءودة ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : مهلاً ... لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت كفيتك مؤونتها...[3]. وهذه المبادئ والمثل كانت في الحقيقة قدرا مشتركا بين هؤلاء الحنفاء دون أن تشكل فى جوهرها منهجا دينياً محددا أو مذهبا عقديا ملتزما وإنما كانت هناك السخرية المريرة من عبادة الأصنام والثورة عليها وعلى بعض العادات والتقاليد والأخلاق التى كانت سائدة مما لا يمت إلى الشهامة والمروءة والنخوة بسبب والدعوة إلى القضاء عليها والأخذ بأوجة الإصلاح لتستقيم الحياة ويتحقق الأمن والسلام، وقد دعا إلى ذلك ما رأته جماعة الحنفاء متفشيا فى مجتمعهم من إغراق فى عبادة الأصنام ومن إسفاف فى شرب الخمر ولعب الميسر وما شاكل ذلك من أمور مضرة فرفعت صوتها كما يرفع المصلحون أصواتهم كل زمان ينادون بالإصلاح وقد أثارت دعوتهم هذه المحافظين وأصحاب الجاه والنفوذ وسدنة الأوثان شأن كل دعوة إصلاحية...[4].

وبالدراسة والبحث تبين أن من بين هؤلاء الحنفاء عددا غير قليل من الشعراء يتفاوتون فيما بينهم فى درجات الفحولة والفصاحة والجودة والشهرة من حيث التحنف كما يتفاوتون فى التعبير عن عقيدة الحنفاء وفى حمل لواء تعاليمها

---

(١) الشعراء الحنفاء ص ٨٥ وما بعدها.

(٢) الأغانى جـ ٣ ص ١٢٣ ط ١ دار الكتب.

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٣ قسم ١ ص ٢٧٧ ط : لندن ١٣٢٢ هـ.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على جـ ٥ ص ٥٦.

ونشرها والدفاع عنها والالتزام بها، وفى مقدمة هؤلاء الشعراء زهير بن أبى سلمى، وأمية بن أبى الصلت، والنابغة الذبيانى، وعبيد بن الأبرص، ولبيد بن ربيعة، وزيد ابن عمرو بن نفيل، وأبو قيس بن أبى أنس، وورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة وسويد ابن عامر المصطلقى، وعبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة وغيرهم[1].

هؤلاء الشعراء الحنفاء عاشوا الحياة الجاهلية بكل صورها وأشكالها وأبعادها وشاركوا الناس مشاعرهم ومشاكلهم وآمالهم وآلامهم ومارسوا الفنون والآداب التى كانت شائعة ورائجة فى عصرهم.. ومما لا شك فيه أن يكون لهم شعر فى سائر الأغراض والموضوعات تتسرب إليه من حين إلى حين هذه الخواطر والإلهامات الدينية والروحية وما يلتزمون به من مبادئ ومثل وأن تكون لهم مع ذلك قصائد ومقطوعات دينية خالصة من وحى مشاعرهم الذاتية وتأملاتهم النفسية وإلهاماتهم الروحية ومعاناتهم الوجدانية وخواطرهم الإشراقية وآرائهم الحكمية.

وقد يروعنا ويبهرنا بحق أن نرى فى شعر الحنفاء هذه النزعة الدينية الصافية الصائبة فى خضم الشرك والوثنية ومتاهات الضياع والانحلال والاختلال من توحيد الله وعبادته سبحانه لا شريك له، ومن إيمان بالحساب والجزاء واليوم الآخر وما تأتى به الأقدار وما ينزل به القضاء ومن دعوة إلى البروالخير والمعروف وزجر عن الشر والإثم والمنكر ومن حث على التواصل والتراحم والتناصر والتكافل وإشاعة أجواء الأمن والطمأنينة والسلام.

وكانت هذه المعانى نابعة من نفوس مؤمنه بالله الواحد مطمئنة بعبادته والخضوع له والانقياد لأمره والإذعان لمشيئته والرضا بقضائه والتسليم بحكمه والثقة فى حكمته ولم تكن شيئا عارضا أو كلاما عابرا أو سرابا خادعا وإنما كانت حقائق ممتزجة بالعقول والقلوب موصولة بالنفوس والأرواح، مرتبطة بالشعور والإحساس.

---

(١) الشعراء الحنفاء ص ١٢٣.

ومما لا شك فيه أنها بهذا الوصف تمثل روحا ساريا فى حنايا شعرهم وأعطافه مهما كانت أغراضه وموضوعاته واتجاهاته ولذلك فإنه لا ينبغى لأحد أن يتلمس شعر الحنفاء فى موضوعات دينية فحسب كما فعل بعض الباحثين[1] بل إن على هؤلاء الباحثين أن يوجهوا جهودهم إلى تلمس تيار الحنيفية السمحة ساريا فى أشعارهم برمتها لتتأكد بذلك الخصائص الفنية الثابتة والسمات الدقيقة المميزة لشعر الحنفاء باعتباره شعرا ناضجا فى جوانبه الفكرية والروحية والاجتماعية يمثل بحق إشراقة وضاءة وعبقرية لماحة وإبداعا متألقا فى الشعر الجاهلى.

إن هذه النزعة الدينية فى شعر هؤلاء الحنفاء نجد هامبثوثة فى أبواب شتى وموضوعات عديدة وبين ثنايا القصائد والمقطوعات التى نظموها فى مجالات حياتهم العامة[2].

والكثير من الشعراء الحنفاء قد لهجت ألسنتهم بكثير من المعانى الدينية التى تصور عقيدتهم وأفكارهم ومبادئهم وأخلاقهم وقد اتسم شعرهم لذلك بهذه السمة الحنيفية التى اعتنقوها وشغلهم الإيمان بها عما سواها[3].

وقد حفلت المصادر العربية القديمة بأشعار هؤلاء الحنفاء التى تفيض بعواطفهم الدينية فى كتب السيرة والأديان والتفسير والتاريخ والأنساب والمعارف والأخبار ومعاجم اللغة مما يؤكد أصالة هذا الشعر ويبرز قيمته وأهميته ويدفع الرأى القائل بأن الشعر الجاهلى لا يصور الحياة الدينية للعرب كما ذهب إلى ذلك " مرجليوث" واقتفى أثره طه حسين [4]ويدحض حجج من يدعى أن الجاهليين كانوا فى طور البداوة وأنهم لم يكونوا فى حالة تسمح لهم بفهم الارتباط بين العلة والمعلول وربط المسببات بأسبابها ربطا محكما وأنهم كانوا يقفون عند السطح ولا يتعلقون بمدركات كلية أو نظرات شاملة كما ذهب

---

(١) أحمد جمال العمرى: الشعراء الحنفاء.

(٢) الشعراء الحنفاء ص ١٥٤.

(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلى لأحمد الحوفى ص ٣٧٠ وما بعدها ط: دار النهضة مصر ١٩٧٠.

(٤) انظر الأدب الجاهلى لطه حسين.

إلى ذلك أحمد جمال العمرى وغيره[1]. ويؤيد هذا الدفع والدحض ما يقرره الشيخ مصطفى عبد الرازق من أنه مهما يكن من أمر العرب فإنهم لم يكونوا فى سذاجة الجماعات الإنسانية الأولى من الناحية الفكرية - كما ظن البعض - يدل على ذلك ما عرف من أديانهم وما روى من آثارهم وما قام بينهم من جدل، فقد كان هذا الجدل يتناول بالضرورة شئون الألوهية والرسالة والبعث والآخرة والملائكة والجن والأرواح ويدعو إلى الموازنة بين المذاهب المختلفة فى تلك الشئون وقد قوى أمر هذا الجدل الدينى فى ذلك العهد حتى تولدت نزعة ترمى إلى تلمس دين إبراهيم دين العرب، وكان يعد العرب للجدل الدينى ويحفزهم إليه إما الدفاع عن أديانهم الموروثة ضد الأديان الدخيلة عليهم وإما المهاجمة لهذه الأديان جميعها من أجل ما يلتمسون من الدين الحنيف[2].

لقد كان لهؤلاء الحنفاء دور بالغ الأهمية فى بث روح العقيدة الحنيفية والعمل على تغيير الأفكار والقيم والمثل فى مجتمعهم وفى جذب كثير من العرب إلى التوحيد والإيمان بالروحانيات والتمسك بالأخلاق والفضائل ولذا فقد شاعت فى أشعار العرب آراء الحنفاء. ومعتقداتهم بما تحمله من معانى التوحيد والإقرار بالألوهية والدعوة إلى نبذ الوثنية والحديث عن البعث والحساب والثواب والعقاب والإشادة بمكارم الأخلاق وحميد الخصال وحسن الفعال وأصبح الشعر بذلك خير وسيلة إعلامية بتعاليم الحنيفية وتهيئة العقول والقلوب لتقبل دعوة الإسلام فيما بعد[3].

وتاريخ الأديان يؤكد أن الإسلام لم يأت فجأة دون أن تكون الحياة إذ ذاك قد تهيأت له وظهرت حاجتها إليه وهذا ما أثبته المؤرخون والعلماء وقد كان فى شعر الحنفاء فى الفترة الأخيرة من الجاهلية ما يسجل التهيؤ لهذا الحادث الجليل وترقبه وانتظاره حيث تطلّعَ هؤلاء الشعراء الحنفاء إلى قيم جديدة غير التى كانت تسود وتتحكم فى مجتمعهم فكان شعر التحنف هو الذى يمثل فى تلك

(١) الشعراء الحنفاء ص ١٥٧ وما بعدها.

(٢) التمهيد فى تاريخ الفلسفة الإسلامية لمصطفى عبد الرازق الطبعة الثانية ١٩٥٩.

(٣) قيم جديدة لأدبنا القديم: عائشة عبد الرحمن ص ٨٨ ط دار المعارف ١٩٧٠.

الفترة الإرهاص الفنى بالتطور المرتقب وليس ببعيد عن الإرهاص الفنى كل هذه المعانى الدينية التى سجلها الحنفاء فى شعرهم وبثوها فى قصائدهم ومقطوعاتهم وأبياتهم وكأنهم بذلك كانوا يمهدون لبزوغ شمس الإسلام والتهيؤ لاستقبال تعاليمه السمحة[1].

ولعل أبرز ما يتسم به شعر الحنفاء ويميزه عن غيره من الشعر الجاهلى ذلك الروح الجاد السارى فى أعطافه الموسوم بالتعقل والأناة وعمق النظر ودقة الملاحظة وبراعة الاستنباط ولطف المأخذ وحسن التأتى وصدق القول ونفاذ البصيرة ورجاحة العقل واستقامة الفكر وأصالة الرأى ونفاذ الحجة ونصاعة البيان وسطوع الدليل والبرهان وجلال الموضوع وصحة المعنى ونقاء الفطرة وصفاء الطبع وشرف الغاية ونبالة الهدف وسلامة القصد ويسر التناول وسهولة الأسلوب وجودة الأداء وسمو التعبير، وقوة التأثير، وخصوصية المعنى والموضوع بعناصره العقدية المرتبطة بالتوحيد والتنزيه وصفات الله وجلاله وكماله وعظيم قدرته والمغايرة لسائر الملل الأخرى فى ذلك والمتعلقة بالقضاء والقدر تأملا وتدبرا، وإذعانا وتسليما، وخضوعا وانقيادا، والموصولة بذكر أخبار الأنبياء والمرسلين، وما كان لهم مع أقوامهم من قصص وما جرى فى أيامهم من أحداث وما شاع من أساطير وما انتشر من أخبار إمعانا فى إسداء العظة والاعتبار وبلوغا إلى قمة الهداية والرشاد ووصولا إلى الحكمة الخالدة النابعة من واقع الحياة ووقائع الدهر وحقائق الأحداث وخلاصة الخبرات والتجارب وعمق النظر وحسن التدبر.

وهذه أبيات مختارة لبعض الشعراء الحنفاء تؤكد هذه الخصائص والسمات وتلقى الضوء على هذه الجوانب التى تناولناها بالتفصيل والتوضيح.

---

(١) نفسه ص ٨٥.

يقول زيد بن عمرو فى مناجاة له:[1].

إلـى اللـه أهـدى مدحتـى وثنائيـا ∴ وقولا رضينا لا ينـى الدهر باقيـا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه ∴ إلـــه ولا رب يكـــون مدانيـــا
رضيت بـك اللهـم ربـا فلـن أرى ∴ أديـن إلهـا غـير اللـه ثانيـا

فهو يهدى مديحه وثناءه إلى الله الخالق الباقى اعترافا بفضله وحقه لأنه الملك الأعلى الذى ليس يعلوه إله آخر ولا يدانيه أحد فى ربوبيته وهـو يقر بأنـه رضـى بالله ربا وبدينه دينا ولن يرى غير الله ودينه بديلا.

ويقول عبد الطابخة بن ثعلب[2].

أدعـوك يـا رب بمـا أنـت أهلـه ∴ دعـاء غريـق قـد تشـبث بـالعصم
لأنـك أهـل الحمـد والخـير كلـه ∴ ونو الطول لـم تعجل بسخط ولـم تلـد
وأنـت الـذى لـم يحيـه الدهر ثانيـا ∴ ولـم يـر عبـد منـك فـى صـالح وجـم
وأنـت القديـم الأول المـاجد الـذى ∴ تبدأت خلق النـاس فـى أكتـم العـدم
وأنـت الـذى أحللتنـى غيـب ظلمـة ∴ إلـى ظلمـة فـى صلـب آدم فـى ظلـم

إنه يناجى ربه معترفا بأنه الملجأ والملاذ يستجيب الدعاء ويحقق الرجاء لأنه أهل الحمد والخير يتحمل أخطاء عبـاده ولا يعـاجلهم بالانتقـام وأنـه سبحانه القوى القادر، والأول الماجد، الباقى الدائم الذى لا يفنى ولا يزول الذى بدأ الخلق من عدم فى ظلمات الأصلاب والأرحام من لـدن آدم إلـى أن يـرث اللـه الأرض ومن عليها.

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٢٢٧ ط ١ الحلبى ١٩٥٥.
(٢) بلوغ الأرب فى معرفة احوال العرب للألوسى جـ ٢ ص ٢٧٦ ط القاهرة ١٩٢٤.

ويقول لبيد:[1].

ألا كل شئ ماخلا الله باطل ∴ وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم ∴ دويهية تصفر منها الأنامل

فكل شئ عدا الله باطل لا دوام له ولابقاء وكل نعيم دنيوى زائل لا محالة وأن الله سبحانه يرث الأرض ومن عليها والموت حتم مقضى لا يفلت منه أحد.

ويقول زهير:[2].

ألا ليت شعرى هل يرى الناس ما أرى ∴ من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لى أن الله حق فزادنى ∴ إلى الحق تقوى الله ما كان باديا
وإنى متى أهبط من الأرض تلعة ∴ أجد أثرا قبلى جديدا وباليا
أرانى إذا مابت بت على هوى ∴ وإنى إذا أصبحت أصبحت غاديا
إلى حفرة أهدى إليها مقيمة ∴ يحث إليها سائق من ورائيا
كأنى وقد خلفت تسعين حجة ∴ خلعت بها عن منكبى ردائيا
بدالى أنى لست مدرك ما مضى ∴ ولا سابق شئ إذا كان جائيا
ألا لا أرى على الحوادث باقيا ∴ ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا
وإلا السماء والبلاد وربنا ∴ وأيامنا معدودة والليالياً
أرانى إذا ما شئت لا قيت آية ∴ تذكرنى بعد الذى كنت ناسيا

يتساءل زهير: هل يرى الناس فى الهداية والرشد ما أرى من الأمر الجليل البين الدال على قدرة الله وعظمته وإرادته النافذة فى خلقه ومشيئته التى لا راد لها تشهد على ذلك آثار الغابرين وقد طواهم الردى وأدركهم البلى ونزل بهم الفناء وحل البلاء وبقيت آيات الله فى كونه شاهدة على جلاله وعظمته وبالغ قدرته.

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٤٨.

(٢) شرح ديوان زهير لثعلب ص ٢٨٤ ط الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤م.

ويقول لبيد:[1].

فواعجبا كيف يعصى الإلـ ∴ ـه أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شئ له آية ∴ تدل على أنه واحد
وللـه فى كل تحريكة ∴ وتسكينة أبدا شاهد

إنه يتعجب من عصيان العاصى وجحود الجاحد مع وفرة الأدلة والشواهد على وحدانية الله وعظيم قدرته وسابغ نعمته ووافر رحمته.

ويقول.. قس بن ساعدة..[2].

ذكر القلب من جواه ادكار ∴ وليال خلا لهن نهار
وسجال هواطل من غمام ∴ ثرن ماء وفى جواهن نار
ضوءها يطمس العيون وإرعا ∴ دشداد فى الخافقين تطار
وقصور مشيدة حوت الخيـ ∴ ـر وأخرى خلت فهن قفار
وجبال شوامخ راسيات ∴ وبحار مياهن غزار
ونجوم تلوح فى ظلم الليـ ∴ ـل نراها فى كل يوم تدار
ثم شمس يحثها قمر الليـ ∴ ـل وكل متابع موار
وصغير وأشمط وكبير ∴ وكلهم فى الصعيد يوما مزار
وكثير مما يقصر عنه ∴ حدسه الخاطر الذى لا يحار
فالذى قد ذكرت دل على اللـ ∴ ـه نفوسا لها هدى واعتبار

إنه يستدل على وجود الله وعظمته بهذه الشواهد الكونية من الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والأمطار والبحار الغزار والجبال الشوامخ الراسيات وغيرها من آيات الله الشاهدة على بديع صنعه وعظيم قدرته.

---

(١) ديوان لبيد ص ٥٢ ط ليدن.

(٢) سيرة ابن كثير جـ ١ ص ١٤٧.

ويقول أمية بن أبى الصلت:(١).

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا ∴ فلا شئ أعلى منك مجدا وأمجد
مليك على عرش السماء مهيمن ∴ لعزته تعنو الوجوه وتسجد

ويقول أمية أيضا:(٢).

إن آيات ربنا ثاقبات ∴ ما يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل ∴ مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب رحيم ∴ بمهاة شعاعها منشور

ويقول كذلك:(٣).

إله العالمين وكل أرض ∴ ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعا شدادا ∴ بلا عمد يُرَيَّن ولا رجال
وسوّاها وزينها بنور ∴ من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلألأ فى دجاها ∴ مراميها أشد من النّصال
وشق الأرض فانبجست عيونا ∴ وأنهارا من العذب الزلال

فأنت تراه يقر بألوهية رب العالمين رب الأرض التى مهدها والجبال التى أرساها والسموات السبع الشداد التى رفعها بغير عمد تَرَوْنها وزينها بالشمس المضيئة والقمر المنير والنجوم المتلالئة وشق فى الأرض أنهارا وفجر عيونا تفيض بالعذب الزلال.

ويذكر زيد بن عمرو بن نفيل إبراهيم والكعبة ويقول:(٤).

عذت بما عاذ به إبراهيم ∴ مستقبل الكعبة وهو قائم
يقول أنفى لك عان راغم ∴ مهما تجشمنى فإنى جاشم

(١) ديوان أمية ص ٣٦٧ تحقيق عبد الحفيظ السطلى، وتفسير الطبرى جـ ٩ ص ٩٣.
(٢) نفسه ص ٣٩١ والسيرة النبوية جـ ١ ص ٦٢ وسيرة ابن كثير جـ ١ ص ٤٠.
(٣) ديوان أمية ص ٤٤٧.
(٤) الأغانى جـ ٣ ص ١٢٣.

ويسبح أبو قيس بن صرمة بحمد الله مع كل طلعة شمس وبزوغ قمر فهو عالم السرورب الهدى والرشاد الطير تسبح بحمده والوحوش فى فلواتها تحيا فى حماه يقول:(١).

سبحوا الله شرق كل صباح ∴ طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدينا ∴ ليس ما قال ربنا بضلال
وله الطير تستريد وتأوى ∴ فى وكور من آمنات الجبال
وله الوحش بالفلاة تراها ∴ فى حقاف وفى ظلال الرمال

ولبيد يرى أن كل كائن حى مصيره إلى زوال ولا يبقى منه إلا آثاره وأن المرء كالشهاب يسطع حينا ثم يخبو ضوؤه ويتلاشى وأن الأهل والأموال ودائع فى هذه الدنيا والودائع مردها حتما إلى صاحبها وخالقها يقول لبيد:.

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ∴ وتبقى الديار بعدنا والمصانع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ∴ يحور رمادا بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع ∴ ولابد يوما أن تُردَّ الودائع(٢)

ومن حديث زهير عن الأمم الغابرة والملوك والجبابرة يقول:(٣).

ألم تر أن الله أهلك تبعا ∴ وأهلك لقمان بن عاد وعاديا
وأهلك ذا القرنين من قبل ماترى ∴ وفرعون جباراً طغى والنجاشيا
ألا لا أرى ذا أمة أصبحت به ∴ فتتركه الأيام وهى كما هيا
ألم تر للنعمان كان بنجوة ∴ من الشر أن امرأ كان ناجيا
فغير منه ملك عشرين حجة ∴ من الدهر يوم واحد كان غاويا
فلم أر مسلوبا له مثل ملكه ∴ أقل صديقا باذلا أو مؤاسيا
فأين الذين كان يعطى جياده ∴ بأرسانهن والحسان الغواليا
وأين الذين يحضرون جفانه ∴ إذا قدمت ألقوا عليها المراسيا
رأيتهم لم يشركوا بنفوسهم ∴ منيته لما رأوا أنها هيا

(١) السيرة النبوية ص ٥١٢.
(٢) الشعر والشعراء ص ١٩٨.
(٣) شرح ديوان زهير ص ٢٨٨.

ملوك وأمم طوتهم يد الردى فأصبحوا كأن لم يكن لهم ذات يوم شأن ولم يدفع عنهم المنية أولئك الذين عاشوا فى ظلالهم يتمتعون بنعيمهم ويمرحون فى خيراتهم.

ولأمية بن أبى الصلت الثقفى شعر كثير يتصل بالأمم الغابرة والديانات السابقة والأنبياء والمرسلين وما كان بينهم وبين أقوامهم من أحداث وما شاع حول هذه الأحداث وغيرهامن أساطير ومن ذلك ما يروى له عن قصة نوح والطوفان[1].

جزى الله الأجل المرء نوحا ∴ جزاء البر ليس له كذاب
بما حملت سفينته وأنجت ∴ غداة أتاهم الموت القلاب
وفيها من أرومته عراة ∴ لديه لا الظماء ولا السغاب
وإذا هم لا لبوس لهم تقيهم ∴ وإذ صخر السلام لهم رطاب
عشية أرسل الطوفان تجرى ∴ وخاض الماء ليس له جراب
على أمواج أخضر ذى حبيك ∴ كأن سعار زاخره الهضاب
وأرسلت الحمامة بعد سبع ∴ تدل على المهالك لا تهاب
تلمس هل ترى فى الأرض عينا ∴ وغايتها من الماء العباب
فجاءت بعد ما ركضت بقطف ∴ عليه الشاط والطين الكباب
فلما فتشوا الآيات صاغوا ∴ لها طوقا كما عقد السخاب
إذا ماتت تورثه بنيها ∴ وإن تقتل فليس لها استلاب[2].

وهو يشير فى نهاية أبياته إلى أسطورة قديمة تقول إن الحمامة هى التى دلت ركاب السفينة على اليابسة وأنهم كافئوها بطوق ملازم لعنقها يتوارثه صغارها من بعدها.

وقد تعرض هذا القصص لأمية وغيره لشك كبير وحامت حوله شبهات كثيرة وثار جدل عنيف وبخاصة ذلك الشعر الذى يتشابه فى مضمونه وأسلوبه مع آيات من القرآن الكريم يقول شوقى ضيف عن بعض هذا الشعر.. وواضح أن هذا شعر ركيك ساقط الأسلوب نظمه بعض القصاص والوعاظ فى عصور

(١) فى البدء والتاريخ جـ ٣ ص ٢٥، الحيوان جـ ٢ ص ٣٢١.
(٢) السغاب: الجياع: حبيك طرائق الماء والموج الشاط: الطين - السخاب: القلادة.

متأخرة عن الجاهلية[1] ويقول فى رده على المستشرق "هيار" الذى زعم حين اطلع على شعر أمية أنه اكتشف فيه مصدرا من مصادر القرآن الكريم: لو كان "هيار" له علم بالعربية وأساليب الجاهلين لعرف أنه وقع على أشعار منتحلة بينة الانتحال ولما تورط فى هذا الخطأ البين[2].

وبعض الباحثين يردون هذا الزعم جملة ويرفضونه ولا يعترفون بهذا الانتحال وهم لا يستبعدون كل هذه المعانى الدينية التى سجلها الحنفاء فى أشعارهم وبثوها فى قصائدهم وأبياتهم لأنها ليست نتاجا فرديا جاء به شاعر من الشعراء ولكنه فى حقيقته وجوهره نتاج يمثل عقيدة الحنفاء وتطلعهم إلى قيم جديدة تسود مجتمعهم وكان شعورهم تبعا لذلك يمثل فى تلك الفترة الإرهاص الفنى بالتطور المرتقب فليس ببعيد عن الإرهاص الفنى كل هذه المعانى الدينية التى سجلها الحنفاء فى أشعارهم[3].

والرأى - فيما أرى - أن هذا الشعر لا ينبغى أن يرفض جملة كما أنه لا ينبغى أن يكون مقبولا جملة كذلك وبالتروى والدراسة والبحث يمكن التعرف على ما ينبغى أن يكون مرفوضا من هذا الشعر لظهور الوضع والانتحال فيه بشكل بين لا يدع مجالا لشك وما ينبغى أن يكون مقبولا منه مما نراه متمشيا مع ما ثبت من الأساطير القديمة ومن مرويات أهل الكتاب عن سير الأنبياء والمرسلين وقصصهم مع أقوامهم.

---

(١) العصر الجاهلى لشوقى ضيف ص ٣٩٦.

(٢) نفسه.

(٣) قيم جديدة لأدبنا القديم والمعاصر لعائشة عبد الرحمن ص ٨٥ ط دار المعارف ١٩٧٠م.